

في ظلال الإمبراطورية: مواقف فلسطينية ضدّ الحركة الصهيونية

١٨٨٢-١٩١٤م

محمود يزيك**

الأجانب. وتطور الجهاز القضائي لجهاز مدني تظامي. وآخر ديني شرعي. وثالث طائفي.^١ وفي سبيل مساواة جميع الرعايا العثمانيين فتحت الدولة سلك الخدمة العسكرية لغير المسلمين. وخصّصت لهم مقاعد في جهاز السلطات المحلية والمناطقية.^٢ وما يهمننا هنا هو أن الإصلاحات العثمانية سمحت ولأول مرة للرعايا الأجانب شراء الأراضي والأموال في أرجاء الدولة العثمانية وتملكها.^٣ وعملت الدولة العثمانية جاهدة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي على إنتاج قوانين مفضّلة ومؤسسات إدارية لتطبيق المبادئ المذكورة.

عبّر برنامج الإصلاحات العثماني عن رغبة الدولة العثمانية في الحصول على موقع مساوٍ في مجتمع «الدول المتحضرة» (مللي متمدنة). حسب ما جاء في نص فرمان همايون. وقد وصلت هذه الرغبة ذروتها في أعقاب حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦م) والتي تحالفت أثناءها دول أوروبا الغربية مع الدولة العثمانية. وحاربت إلى جانبها. ضد روسيا. وبأعقاب هذه الحرب تعاضمت العلاقات الدولية العثمانية التي تشكلت بداياتها منذ أن احتل محمد علي والي مصر بلاد الشام (١٨٣١-١٨٤٠م). وأدى هذا الاحتلال وما تلاه من استغاثات عثمانية متكررة لطلب مساعدة الدول الأوروبية لتهميش مكانة الدولة العثمانية في ميزان العلاقات الدولية.^٤ وبرز هذا التهميش كذلك لضعف مكانتها الاقتصادية في المنظومة الدولية التي كانت تحت سيطرة الدول الأوروبية.^٥

إضافة لذلك فإن «منظومة الامتيازات» المتعارف عليها بين دول أوروبا والدولة العثمانية. والتي تمّ تصديقها مجدداً في الاتفاقية التجارية المعروفة باسم «التا ليما» من سنة ١٨٣٨م. أعطت أفضلية أحادية الجانب لرعايا الدول الأوروبية في تخوم الدولة العثمانية.^٦ هذه الامتيازات قدّمت للرعايا الأوروبيين المتواجدين على أراضي الدولة العثمانية. ولمن تحت حمايتهم من العثمانيين. حق التقاضي في محاكم خاصة وبحضور ممثلين عن دولهم. وأدت في النهاية للحصول على عدد أكبر من الامتيازات لإنشاء وتشغيل مشاريع اقتصادية أجنبية في أرجاء الدولة العثمانية. ممّا مكّن الرأسمال والمصالح السياسية الأوروبية. والتي التصقت بها أهداف دينية. من التغلغل بسهولة في أراضي الدولة العثمانية.^٧

وفي موازاة التغلغل الاقتصادي وتمحور الدافع الديني الأوروبي حول شعار «تحرير فلسطين من يد الكفار المسلمين» أقيمت في أنحاء فلسطين مؤسسات

تسعى هذه الورقة لشرح وفهم الواقع التاريخي الذي سهّل تغلغل الحركة الصهيونية في أراضي الدولة العثمانية وتجذرها في فلسطين. وقد تمّ هذا التغلغل من خلال صيرورتان متزامتان أخذتا بالتفاعل منذ منتصف القرن التاسع عشر: ارتبطت الأولى بعلاقات الدولة العثمانية مع الغرب. بينما نتجت الثانية عن أحداث وتحولات عثمانية داخلية. وكان من نتيجة هاتين الصيرورتين أن مكّنتا التغلغل الصهيوني في أراضي الدولة العثمانية.

أعلن السلطان العثماني عام ١٨٣٩م فرمان (أوامر) الإصلاحات المعروفة باسم خطي شريف كلخانة. والذي شمل خطوط عريضة لإنشاء إطار قانوني جديد يلغي التمييز بين الرعايا. ويشجع ويعمّق إخلاصهم لدولتهم. وينمّي مشاعر حب الوطن لديهم. وفي إعلان الإصلاحات الثاني المعروف باسم همايون. والذي أعلنته الدولة العثمانية في شباط/فبراير ١٨٥٦م. فضّل السلطان العثماني المبادئ والأطر التي ستسعى لتحقيق مشاعر محبة الوطن (الوطنية) المرجوة. وقد شدّد السلطان. من بين أمور أخرى. على تحقيق استقلال ذاتي للطوائف غير الإسلامية في الأمور الدينية. وتحقيق المساواة بين كل الرعايا أثناء التعيينات للوظائف بسلك خدمات الدولة: وقد أقيم عقب إعلان الإصلاحات جهاز قضائي جديد عمل إلى جانب الجهاز القضائي الديني-الطائفي. والذي قضى في الشؤون القضائية بين الرعايا العثمانيين. المسلمين وغير المسلمين. وبينهم وما بين الرعايا

* يشكر الكاتب ابن يافا البار السيد عدلي مسعود الدرهمي.

والذي أتاح لي الفرصة لإتمام هذه الدراسة.

** رئيس دائرة دراسات الشرق الأوسط بجامعة حيفا.

دينية وتبشيرية جديدة: أديرة وكنائس ومستشفيات ومدارس. وأجاد ألكسندر شولش بوصفه هذا التحول والنظر إليه «كاستمرار لحرب صليبية بأدوات عصرية»^{١٠} وواقع الحال، فإن دائرة النشاطات الواسعة التي ضمنها ووفرتها منظومة الامتيازات لسفراء الدول الأوروبية الكبرى ولممثلهم في فلسطين، لعبت دوراً هاماً لإزاحة أية محاولات عثمانية للاعتراض على هجرة اليهود لفلسطين واستملاك الأراضي فيها. كونهم رعايا أو يتمتعون بحماية إحدى دول أوروبا.^{١١}

وسبق الاستيطان اليهودي-الصهيوني في فلسطين، والذي بدأ منذ العام ١٨٨٢م، محاولات استيطانية لعناصر مسيحية أوروبية. وكانت المحاولة الأولى لحركة نصرانية مسيحية (messianic) أمريكية. سعت لإقامة مستوطنة في مدينة يافا في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، ولكنها تركت المكان بعد عدة سنوات، لم يثن فشل هذه المجموعة الأمريكية الهكيليين الألمان (Templers)، والذين عملوا بدوافع تبشيرية مسيحية إنجيلية، من محاولة إنشاء مستوطنة زراعية أولى في حيفا عام ١٨٦٨م. وقد شجعهم نجاحهم في حيفا على إقامة مستوطنات أخرى في القدس ويافا وأماكن أخرى.^{١٢}

وللحصول على موطنٍ قدم في فلسطين العثمانية «تبتت» دول أوروبا طوائف مسيحية محلية، و«دافع» الجميع عن مصالحهم المشتركة لتوسيع منظومة امتيازات دولهم على حساب الدولة العثمانية، وهكذا بسطت فرنسا حمايتها على الطائفة الكاثوليكية، وروسيا على الطائفة الأرثوذكسية، وأمّا بريطانيا التي لم يتبق لها طائفة مسيحية فلسطينية لتبسط حمايتها عليها، فقد «أوجدت» طائفة كهذه، وعلى ما يبدو فإنه لم تظهر في بريطانيا صدفّة حركة دعت «لإعادة» (Restoration) فلسطين لليهود، وحسب المعتقدات الأنجليكانية، فقد اعتمد ظهور المسيح المخلص على تجميع اليهود في الأرض المقدسة وتنصيرهم، وفي سبيل ذلك أخذت «الجمعية اللندنية لنشر المسيحية بين اليهود» على عاتقها تنفيذ هذه المهمة، وفي أربعينيات القرن التاسع عشر الميلادي حلمت جمعية «الصهيانية غير اليهود» (Gentile Zionists) البريطانية لإقامة «مستوطنات يهودية أو دولة يهودية تحت الحماية البريطانية لإعادة اليهود للدفاع عن المصالح البريطانية الاقتصادية والسياسية في المنطقة»^{١٣}، وعلى الرغم من الانضمام المتأخر للمستعمرين اليهود (حسب مصطلحات القرن التاسع عشر)، أي المستوطنين الصهيانية، لعملية الاستعمار

والاستيطان، حيث انعقد المؤتمر الصهيوني الأول الذي دعى لإنشاء كيان للشعب اليهودي في فلسطين عام ١٨٩٧م، فقد مشت الأهداف القومية اليهودية بدأً بيد مع المصالح البريطانية في الشرق الأوسط.^{١٤}

لقد عبّرت برامج الاستيطان (الاستعمار) أو «إعادة بناء» فلسطين، والتي سبقت الصهيونية، في الواقع عن استلاب واقتلاع وطرد السكان العرب الأصليين من وطنهم، وتمّ عرض وتسويق هذه البرامج بوصفها «حلولاً» مستقبلية قابلة للتنفيذ.^{١٥} وتذكرنا وصفة كوندر المعروفة لجعل الأصليين «حطابين وسقاة ماء»^{١٦} بأفكار الأسكتلندي أوليفنت الذي نظر لسكان فلسطين الأصليين على أنّهم مجرد «أيد عاملة بخدمة رأسمال المهاجرين»^{١٧} يضيف شولش بعد اقتباسه من كتاب «أرض جلعاد» لأوليفانت ما يلي:

كشف أوليفانت عن أفكاره حينما كتب تقريراً عن سهل الحولة، والذي دعى من خلاله تقليد ما فعله سبسط دان في العصر القديم حينما اقتلع الفلاحين الذين سكنوا المنطقة من أراضيهم، وكتب: اليوم علينا فعل الفعل ذاته ولكن 'بطرق عصرية'، ولتنفيذ ذلك يمكن إقامة شركة استثمارات وبدفع المساهمون بالشركة تعويضاً عن أملاك الفلاحين ومن ثمّ يسيطروا عليهم كالسيطرة على العبيد. وهكذا يمكن إنشاء استثمار مريح على أراضي الحولة.^{١٨}

وأما هنري ديونانت (Henry Dunant) السويسري والمؤسس لجمعية الصليب الأحمر فقد حلم بإقامة استيطان مسيحي أوروبي مكثّف في فلسطين تحت حماية نابليون الثالث: «وأهم ما ينتج عن ذلك يكون... تحرير الأرض المقدسة» من عبودية الأتراك والقضاء على الإسلام بالطرق السلمية، ويمكن تحقيق هذه الأهداف بواسطة إقامة جمعية دولية لتجديد الشرق.^{١٩} وفي الوقت ذاته اعتقد الفرنسيون أن احتلال فلسطين «سلمياً» يمكن أن يتحقق بالوسائل الاقتصادية: «إذا جهّزنا ميناء يافا بأجهزة عصرية، سيكون ذلك لمصلحة مرسيليا، ويتعزز التأثير السياسي لفرنسا... حتى يأتي اليوم الذي تستنتج به حكومة فرنسا أنّه لا بدّ من اللجوء لوسائلها العسكرية للحفاظ على مكتسباتها الاقتصادية»^{٢٠}

لا تقل أفكار الجغرافي النمساوي كولمان Kuhlmann أهمية عن غيرها في هذا المضمار، وعلى الرغم من «تصويره فلسطين لقرائه كخالية من السكان» فقد اقترح على المستوطنين الألمان الذين ينوون الاستيطان في فلسطين أن يأتوا «كمجموعات كبيرة، وأن تتكون كل مجموعة على الأقل من ألف

شخص، قادرين على حمل السلاح، حتى يستطيعوا الصمود أمام مقاومة السكان المسلمين.¹⁴ وما عدا مشروع استيطان الهيكلين، وفيما بعدهم المشروع الصهيوني، لم تعط أياً من مشاريع الاستعمار المذكورة أعلاه أية ثمار. واستمرار انشغال المسيحية الأوروبية المتعاطف خلال القرن التاسع عشر بموضوع الأرض المقدسة، أوجد لدى الرحالة المسيحيين البسطاء ولدى المبشرين البراغماتيين شعوراً «بأحقيتهم» بهذه الأرض. هذه الأجواء من التوقعات والأحقية مهدت الأرض أمام نشاطات القناصل الأجانب ووكلائهم المحليين، الذين أصبحوا من أهم القوى الدافعة للتغلغل الأوروبي، ولاحقاً للتغلغل الصهيوني في المنطقة.

وبعد الأخذ بالاعتبار أوضاع الدولة العثمانية وأوضاع المجتمع الفلسطيني والمنظومة السياسية الدولية، يبقى السؤال المطروح: هل كان من الممكن منع أو وقف تغلغل الحركة الصهيونية في فلسطين؟

الردّ العثماني

لقد شكّل اليهود في الدولة العثمانية عامة، وفي المجتمع الفلسطيني خاصّة، ولفترات طويلة قبل ظهور الحركة الصهيونية، مُركّباً أساسياً من مُركّبات المجتمعات المحلية. ولم تكن الهجرة اليهودية المنظمة وذات الطابع القومي، والتي تعاطفت منذ عام 1882م، بخافية عن أنظار الدولة العثمانية، وقد فرّقت الدولة في تعاملها ما بين هؤلاء المهاجرين وما بين رعاياها من قدامى اليهود. لذا قررت في خريف 1881م رفض الاستيطان اليهودي الجديد حتى قبل وصول دفعات المهاجرين لفلسطين.¹⁵

وفي ظل قلق الدولة العثمانية من استيطان الألمان التمبريين في فلسطين، والضغط الدولي التي رافقت ذلك، وتعاطف الشعور القومي في منطقة البلقان، والمتعارض مع الوطنية العثمانية، واشتداد حركات التمرد القومية في البلقان، والحروب مع روسيا، والخشية من انتقال هذه المخاطر لفلسطين، قررت الحكومة العثمانية في أيلول 1882م: «يسمح للمهاجرين اليهود الاستيطان كمجموعات متفرقة في أرجاء الدولة العثمانية، ما عدا في فلسطين، وعليهم الانصياع لكل قوانين الدولة العثمانية وأن يصبحوا رعايا عثمانيين»¹⁶

وحاول العثمانيون ما بين 1882-1914م تشريع عددٍ لا

يحصى من التشريعات لتحديد أو منع هجرة يهودية - قومية قد تؤدي لاستيطان قوميّ منفصل في فلسطين. إلا أن التزام الدولة العثمانية بشروط الامتيازات، والتزاماتها الكثيرة تجاه الدول الكبرى، أفرغت هذه المحاولات من مضمونها وجعلتها بلا فائدة. وفي حالات عدة تناقضت هذه المحاولات مع الالتزامات والاتفاقات الدولية، وكان فشلها محسوماً مسبقاً.¹⁷

أنتج فشل الحكومة العثمانية بمنع الهجرة اليهودية إلى فلسطين محاولات أخرى لمنع هؤلاء المهاجرين، على الأقل، من إقامة مستوطنات خاصة بهم، واستثمرت الدولة جهوداً كثيرةً لمنع انتقال أراضٍ تملكها الدولة (ميرية) للأجانب، ومن ضمنهم اليهود غير العثمانيين. وقد أغضبت هذه التشريعات القناصل الأجانب فاتهموا الحكومة العثمانية بنقض أحاديّ الجانب لشروط الامتيازات، وادّعوا أنّها تتعارض مع قانون الأراضي لسنة 1817م، والذي سمح للأجانب تملك أراضٍ عثمانية بشروط معينة.¹⁸ وحيث أن اليهود المهاجرين من بلدان أوروبا تمتعوا بحماية دولهم، أو كانوا رعايا أوروبيين، فقد نجح ممثلو الدول الأوروبية في عام 1893م، وبعد صراع مرير، بإجبار الدولة العثمانية على الموافقة على نقل ملكية الأراضي لليهود أصحاب الجنسيات الأجنبية، أو الذين يتمتعون بالحماية الأوروبية، بشرط عدم السماح لليهود مهاجرين «غير شرعيين» الاستيطان على أراضيهم.

أدى الاعلان الرسمي عن انشاء الحركة الصهيونية في عام 1897م، وتوالي الأخبار لقصر السلطان عن رغبة الصهاينة ونوابهم لإقامة دولة يهودية في فلسطين، إلى تأكيد الرفض العثماني للهجرة اليهودية، وعلى الرغم من ذلك، فقد نجحت الحركة الصهيونية في مضاعفة أعداد اليهود في فلسطين من 24000 في عام 1882م لحوالي 50,000 في عام 1897م، أي بزيادة تفوق الضعف، والمقياس العملي لفشل السياسة العثمانية لمنع الهجرة اليهودية القومية يقاس بعدد المستوطنات اليهودية الجديدة والتي أقيمت ما بين 1882-1897م: ففي هذه الفترة أقيمت 18 مستوطنة يهودية جديدة، ومع هذا، لم يتوقف الضغط الأوروبي، وفي كانون الثاني/يناير 1901م جاءت للقدس لجنة تحقيق عثمانية للتحقيق في مسألة الهجرة والاستيطان اليهودي، والبحث في المكانية غير القانونية للمهاجرين اليهود غير الشرعيين، وأوصت بفوننة ملكيات الأرض وتسجيلها لليهود الذين يصرحون بإخلاصهم للدولة العثمانية.

استمرت السياسة العثمانية تجاه فلسطين بعد

ثورة «تركيا الفتاة» عام ١٩٠٨م بالتعثر. وقد اتسمت بعدم الثبات وبالصعود والنزول. وقد ازداد عدد اليهود عشية هذه الثورة فبلغ حوالي ٨٠,٠٠٠ شخص. وإضافة للسكان اليهود الذين سكنوا في المدن الأربعة: القدس وصفد وطبريا والخليل. والذين ينشأ إليهم بالمصادر الصهيونية بالاستيطان القديم. أي ما قبل ١٨٨٢م. أضيف ٦٠٠٠ مهاجر ليافا وحوالي ٢٠٠٠ لحيفا. وأمّا ملكية الأراضي اليهودية فقد ازدادت لأكثر من ٤٠٠,٠٠٠ دونم. وازداد عدد المستوطنات لست وعشرين مستوطنة. سكن بهم حوالي ١٠,٠٠٠ شخص.

وعشية ١٩٠٨م عملت في يافا والقدس عدة مؤسسات استيطانية صهيونية. ومنذ ١٩٠٣م نشطت عدة أحزاب صهيونية رفعت شعار «العمل العبري». وسعت لتحقيق الأهداف الصهيونية. وفي الواقع. فقد نجحت عناصر الاستيطان الصهيوني في ظل قانون الملة العثماني. أي قانون دولة المواطنين أو الرعايا. وبرعاية وتأييد وحماية دول أوروبا العظمى. في وضع الأسس لبناء وجود يهودي قومي مستقل في فلسطين. ففي هذه الفترة زُرعت بذور ما سيسمى لاحقاً «دولة في الطريق».

برزت في هذه المرحلة بين السكان اليهود مواقف مختلفة تجاه العرب. وغالباً ما عبّر «اليهود القدامى» من الشرقيين (السفاراديم) والغربيين (الإشكنازيم) على حد سواء. والذين شكلوا جزءاً من النسيج الاجتماعي المحلي. عن امتعاضهم من. وعدم رضاهم عن. نشاطات الحركة الصهيونية. وظهر هذا الامتعاض خاصة تجاه مواقف الصهيونية المتعالية والمتعجرفة ضد العرب واليهود القدامى والدولة العثمانية. ومما زاد الشقاق بين المهاجرين الصهاينة الجدد واليهود القدامى عدم معرفة الصهاينة بلغة وعادات أهل البلاد. وأهدافهم السياسية الانفصالية والانعزالية. وأمّا العرب الذين شاهدوا بأعينهم استمرار توسّع الاستيطان اليهودي الجديد. وفشل السياسة والإدارة العثمانية من ناحية أخرى في مواجهته. فقد أخذوا ببلورة ردودهم تجاه كل ذلك.

الرّد العربي على التغلغل الصهيوني في فلسطين

في نظرة عامّة على الفترة ما بين ١٨٨٢-١٩١٤م. والتي أقامت فيها الحركة الصهيونية في المناطق الريفية أكثر من ٥٠ مستوطنة. يمكن القول بصورة إجمالية

أنه لم تنشأ صراعات هامة بين المستوطنين اليهود. المهاجرون الجدد. وبين الأصليين الفلسطينيين. وحين سجّلت نزاعات. فإنّها لم تتعدّ كونها نزاعات عادية بين جيران. وقد تمحورت هذه النزاعات عادةً حول تحديد الحدود بين القرى والمستوطنات. وتمحورت نزاعات أخرى حول حقوق الرعي واستخدامات الأراضي المشاع. ولا يمكن الإشارة حول هذه الفترة لأية صراعات ذات طابع قومي أو ديني.

وأما الحالة في المدن فكانت أكثر تعقيداً؛ وقد نتج هذا التعقيد بالأساس عن التناقضات والإشكاليات الداخلية للمجتمع الفلسطيني نفسه في تلك الفترة. مثل التناقض بين المثقفين وبين القيادات التقليدية؛ بين المسلمين وبين غير المسلمين؛ بين أصحاب الوظائف في المؤسسة الحكومية العثمانية وبين أصحاب المناصب الاجتماعية والإدارات المحليه؛ وبين أبناء العائلات العريقة ممّن اعتبروا أنفسهم عليّة القوم وبين الناس العاديين.

في المقابل. زادت الحالة في المجتمع المدني اليهودي. والذي شارك الفلسطينيين نفس الحيّز خلال مئات السنين. الفسيفساء الاجتماعية تعقيداً أكثر. فمن ناحية شكّل اليهود القدامى جزءاً متكاملًا من المجتمع الفلسطيني العثماني. ومن ناحية أخرى تواجد يهود «جدد» لم يتماثلوا مع محيطهم. بل أظهروا أهدافاً ورغباتٍ مناقضة تماماً لطابع السكان اليهود المعروف للجميع. وحسب ما هو ثابت في المصادر التاريخية فقد تشكلت في حزيران/يونيو ١٨٩١م أول حركة احتجاج عربية ضد الاستيطان القومي اليهودي. وتمثّل هذا الاحتجاج بصورة برقية أرسلتها من القدس مجموعة من التجار والحرفيين. مسلمين ومسيحيين. للباب العالي. مقر السلطات العثمانية في اسطنبول. طالب مرسلوها منع دخول اليهود الروس لفلسطين وتملّك الأراضي فيها.^{٤٤} وصدر هذا الاحتجاج بعد مرور عقد على بداية الهجرة اليهودية الصهيونية. وقبل بضع سنوات لانعقاد المؤتمر الصهيوني الأول. وعبّر المحتجّون في برقيتهم عن خشيتهم من تعاضد منافسة المهاجرين اليهود لهم في أرزاقهم ومواردهم. لقد ظهرت أول إشارة علنية حول شأن الهجرة اليهودية لفلسطين وأهدافها السياسية على صفحات مجلة **المقتطف**. الصادرة في القاهرة عن صاحبها د. يعقوب صرّوف ود. فارس نمر. وهما مثقفان مسيحيان من الجالية اللبنانية في القاهرة. وقد لخصت **المقتطف** في العدد العاشر من المجلد التاسع عشر. وبعد مرور أربع سنوات على البرقية المذكورة أعلاه. مقالة ظهرت

المسألة

١٣١٥

مجلة شهرية تبث في فلسفة الدين وشؤون الاجتماع والمران

« تصدر في كل شهر عربي مرة »

لنشأتها

السنة الأولى

عنوانها (مصر - إدارة مجلة المنار) والقرافي « المنار بمصر »

المجلد الأول

سنة ١٣١٥ رسة ١٣١٦

قيمة الاشتراك عن سنة ستون قرشاً صاعاً في مصر والسودان
وفي المملكة العثمانية ثلاثة ريالاً ونصف وفي الخارج ١٨ قرشاً
و١٥ شللاً في الهند و٧ روابل في روسيا والدفع سلفاً

« حقوق إعادة الطبع والترجمة لكل أولئك محفوظة للنشر - المجلة »

الطبعة الثانية سنة ١٣٢٧

طبع بعتبة المنار بشارع باب الجزيرة بمصر

تحقيق نبوءتين عظيمتين من نبوءات التوراة «الأولى نبوءة أشعيا... [وعلى إثر ذلك]. ينشأ في القدس الشريف مجلس للتحكيم بين الممالك في جميع الخلافات الدولية وتبطل الحروب والخصومات.»

وعلق محررا المقتطف عن رأيهما في نهاية المقالة بالقول: «لو أن الدكتور مندس استشار اليهود في رجوعهم إلى أورشليم لوجد أنّ كثيرين منهم لا يودون ذلك. ولاكتشف أن غالبيتهم لا يرغبون بذلك.»^{٦٥}

وبعد مرور ستة شهور على عقد المؤتمر الصهيوني الأول في بازل. ظهر في «المقتطف» أول خبر عن الصهيونية. ففي زاوية أسئلة وأجوبة نُشر سؤال عنها من قبل شخص يدعى اس. جودة من فرنكفورت. وعنوان «المقتطف» السؤال كالتالي: «عود اليهود إلى فلسطين.»^{٦٦}

وأما مجلة المنار التي صدر عددها الأول في القاهرة عام ١٨٩٨م. فقد اقتبست في عددها السادس الصادر في أواخر نيسان/إبريل من نفس السنة. مضمون السؤال الذي ورد قبل ذلك على صفحات المقتطف. وأولى محرر ومؤسس مجلة المنار الشيخ محمد رشيد رضا. أهمية كبيرة لتقديم الموضوع أعلاه لقرائه. حيث أن هذه المجلة اهتمت كما كتب صاحبها «بالإصلاح الديني والاجتماعي لأمتنا الإسلامية وللمن يعيش معها.»^{٦٧} لقد عكس هذا التعريف انتماء رشيد رضا لحركة الإصلاح الإسلامي التي سعت لرفع شأن الأمة والدولة الإسلامية بوسائط إسلامية. وحوث المجله مجموعة كبيرة من المقالات التي بحثت في قضايا إحياء الأمة الإسلامية.

وفي المقدمة لسؤال السائل من فرنكفورت. أضافت المنار ملاحظات لم تظهر في السؤال الأصلي الذي ورد في المقتطف. وأضافت عنواناً مغايراً للعنوان الأصلي الذي ظهر في المصدر الذي اقتبست منه. وبدلاً من عنوان «عود اليهود إلى فلسطين» اختارت المنار عنواناً آخر: «خبر واعتبار» وفي مقدمته أشار محرر المنار أن:

السائل [في المقتطف] أراد استيضاح حقيقة الأخبار التي ظهرت في الصحافة العالمية وموضوعها «إجلاء اليهود عن الممالك التي تضطهدهم ومهاجرتهم إلى فلسطين. [ولأهمية الموضوع] فرأينا أن نبين ذلك للقراء ونذيلّه بما يعنُّ لنا بشأنه من التنبيهات الموجبة لليقظة والاعتبار وها هو بحروفه:

«فرنكفورت: اس. جودة. لا بد من أنكم سمعتم عن الحركة التي حدثت فجأة منذ ستة أشهر بين اليهود في بلاد النمسا وألمانيا وإنكلترا وأميركا. وهي المعروفة باسم

في مجلة أمريكية كتبها كاهن يهودي تحت اسم دكتور مندس. وذكرت المقتطف أن مندس يعتقد «أن السبيل الوحيد لإبطال الحروب والخصومات من بين ممالك الأرض وربط الأمم كلها بربط الحب والإخاء هو أن تُردّ بلاد فلسطين إلى اليهود. وهذا يؤدي باعتقاده لخمس فوائد كبيرة:

حل المسألة الشرقية:

إنهاء المنافسة بين أصحاب المذاهب المسيحية الثلاثة الروم والكاثوليك والبروتستنت. فإن كلاً منهم يطلب أن يكون الأول في القدس الشريف. فإذا أعطيت القدس لليهود بطلت منافستهم:

توسيع نطاق التجارة بين الشرق والغرب بواسطة اليهود لأنهم أمهر الناس فيها [...]:

حل المسألة الإسرائيلية في روسيا وألمانيا وفرنسا:



الشيخ محمد رشيد رضا مؤسس مجلة المنار

يلاقون فيها أقل المقاومات. وأغنياء اليهود لا يرون أنفسهم مضطرين إلى نقل إخوانهم إلى فلسطين. ولا هذا النقل من الهنات الهنات. نعم يقوم بينهم أحيانا أناس محسنون أهل غيرة وحمية كالبارون هرش فينفقوا النفقات الطائلة على نقل جماهير كبيرة من إخوانهم إلى بلاد يبتاعونها ويسكنونهم فيها. ولكن ذلك نادر. ونقل اليهود إلى فلسطين وابتياح الأرض من الحكومة ومن أصحابها أصعب من نقلهم إلى أرجنتين. ولذلك نستبعد نجاح الصهيونيين. ونحسب أن السعي لدى حكومات روسيا ورومانيا والبلغار في إصلاح شأن اليهود فيها أقرب منالاً. لا سيما وأن طلب كفالة الدول الأوروبية وحميبتها لليهود الذين يراد نقلهم إلى فلسطين عقبة كبيرة في سبيل هذا الغرض لأن الدولة العثمانية لا ترضى به اهـ [انتهى] بحروفه.

وبعد الانتهاء من الاقتباس أعلاه أضاف محرر المنار ملاحظاته وأوضح دوافعه لهذا الاقتباس الطويل ضمن النقاط التالية:

أن المضطهدين في جميع ممالك الأرض يرغبون الجلاء إلى بلاد الدولة العلية ليكونوا

الصهيونية. ويظهر من الجرائد الأوروبية أن غاية الصهيونيين إنشاء مسكن في فلسطين لليهود المضطهدين في روسيا وبلغاريا ورومانيا وبلاد الفرس والمغرب. وذلك بإذن الدولة العلية وكفالة الدول الأوروبية وتحت حمايتهم. ومرادهم تعمير أراضي فلسطين في الفلاحة والصناعة. فيعيشون آمنين في ظل الحضرة الشاهانية. ويقبل عدد الفقراء في أوروبا. وتتسع أسباب التجارة بين الشرق والغرب. وقد أسهبت الجرائد الشهيرة كالتيمس والدايلي كرونيكل والدايلي تلغراف وأشهر جرائد النمسا في استحسان هذا الرأي. وقالت أنه قريب المنال لأن الدولة العثمانية ترغب في عمار بلادها. والدول الأوروبية لا تمنع فقراء اليهود من ترك بلادهم والانتقال إلى البلدان الشرقية لكي ينشروا فيها المعارف ويوسعوا التجارة والصناعة. ولا سيما وأن اليهود قد اشتهروا بولائهم للدول التي تحميهم وتحسن إليهم. فتجد الدولة العثمانية منهم كل ولاء وأمانة. وأريد أن أعلم من المقتطف هل اعتنت الجرائد العربية في مصر وسورية بهذا الأمر وما رأيكم في إمكان إجرائه.

(ج) [الجواب] لا يظهر لنا ممّا نطالعه من الجرائد العربية أنها اعتنت بهذا الأمر اعتناء خاصاً. وإنما ذكره بعضها مع سائر الأخبار التي يذكرها. واليهود الذين أتوا فلسطين حتى الآن أهل صناعة وتجارة كما تقولون. وقد أفلحوا فيها وقبضوا على أكثر فروع التجارة والبيع والشراء. وإذا زاد عددهم قبضوا على كل موارد التجارة وأساليب الصناعة. أما الفلاحة فلانظن أنهم يعكفون عليها لأنهم ليسوا أهل فلاحه في بلاد من البلدان التي هم منتشرون فيها. وقد صار كل شيء ممكناً لأهل المال فلا يستحيل عليهم أمر إذا بادروه وعقدوا النية عليه. فإذا أنفق أغنياء اليهود في أوروبا على ابتياح الجانب الأكبر من أراضي فلسطين. ونقل إخوانهم الفقراء إليها. لم يتعذر عليهم ذلك. ولم يتعذر على هؤلاء الفقراء أن يعيشوا في فلسطين بالراحة والرخاء لأن الأرض وسيعة وخيراتها كثيرة. وكانت تمون أضعاف أضعاف سكانها الحاليين. ولكن بين ما يمكن للإنسان وما يُقدم عليه بوناً شاسعاً. فإن الناس إذا عملوا أعمالهم عن اختيار لا عن اضطرار جروا في الطريق التي

في مأمن من الظلم والاضطهاد في ظل الحضرة السلطانية الظليل. وما ذلك إلا لاعتقادهم أنه ليس في بلاد الدولة من الغلو في التعصب وإيذاء المخالف ما في سائر الممالك التي يرغبون الجلاء عنها كروسيا وبلغاريا. والتي لا يودون الجلاء إليها كبقية ممالك أوروبا. ولا التفات لقول القائل تحت حماية أوربا لأننا نرى جميع اليهود في بلاد الدولة العلية سواء لا يرون فيها ثورة ولا شغباً. ولا يمنعون حرفه ولا كسباً. ودانية عليهم ظلالها. ومسوية بينهم أحكامها. نعم أن المرجح لاختيار اليهود فلسطين كونها بلاداً مقدسة وموضع آمال منتظرة. ولكن الأمن والراحة شرط للاختيار.

توجيه الأنتظار وتحويل الأفكار إلى ما فيها من مطارحات الجرائد ومداولات السياسة في أوربا بشأن تعمير فقراء اليهود لبلاد فلسطين وبث المعارف وتوسيع التجارة والصناعة في ربوعها لعل أهل بلادنا تجيش في نفوسهم مراحل الغيرة فتندفع إلى طلب ما تتوقف عليه سعادة أوطانهم من علم وعمل ولا شك أنهم لا يعدمون عند الطلب رشاداً.

إنقاص قوم قد رزؤوا بالخمول وكاد يعمهم الذهول. واستلقاتهم إلى الروابط المحكمة بين اليهود مع تفرقهم في الممالك وتشتتهم في الأقطار. وكيف يمدون سواعدهم لمساعدة إخوانهم ومعاوضة قومهم من وراء البحار والجبال. لم يصددهم تنائي الديار عن المواصلة في الأفكار. والتعاون بالدرهم والدينار. الذي يحقق به كل أمل. ويناط به كل عمل.

فيا أيها القانعون بالخمول أفنعوا رؤوسكم (ارفعوها) وحققوا بأبصاركم وانظروا ماذا تفعل الشعوب والأمم. أصيخوا لما تحدثت به العوالم عنكم. أترضون أن يسجل في جرائد جميع الدول أن فقراء أضعف الشعوب الذين تلفظهم جميع الحكومات من بلادها هم من العلم والمعرفة بأساليب العمران وطرقه بحيث يقدر على امتلاك بلادكم واستعمارها وجعل أربابها أجراء وأغنيائها فقراء... تفكروا في هذه المسألة واجعلوها موضوع محاورتكم لتبينوا هل هي حقة أم باطلة. صادقة أم كاذبة. ثم إذا تبين لكم أنكم مقصرون في حقوق أوطانكم وخدمة أمتكم وملتكم فانظروا وتأملوا وتفكروا وتذاكروا وتجاوزوا وتناظروا في مثل هذا الأمر.

فهو أخلق بالنظر من اختلاق المعايير. وانتحال المثالب. وإصاقها بالبرء. وأحرى بالمحاوره من التجني على إخوانكم. فان في الخير شغلاً عن الشر. وفي الجد مندوحة عن الباطل.^{١٨}

في آذار ١٨٩٩ عبّر المثقف الفلسطيني يوسف ضياء الخالدي عن مخاوفه من الحركة الصهيونية التي ستشكل خطراً على السلم والتعايش المشترك بين المسلمين والنصارى واليهود. وقد عبّر عن ذلك خلال رسالة طويلة أرسلها لصديقه الحاخام اليهودي الفرنسي. صادق كوهين. والذي ربطته معرفة وطيدة بهرتسل.

كان يوسف الخالدي حين كتب رسالته تلك قد تجاوز السبعين من عمره. وكان قد شغل قبل ذلك عدة مناصب ووظائف في الإدارة العامة العثمانية. ومن ضمنها في وزارة الخارجية كممثل قنصلي في دول أوروبا وفي روسيا. وكان ذا ثقافة عالمية. وقد شغل كذلك منصب رئاسة بلدية القدس. وسافر بين الفينة والأخرى لأوروبا. ودعي لتدريس الحضارة الإسلامية في جامعة فيينا. وقد أتقن عدة لغات. فتحدث وكتب بالفرنسية. والإنجليزية. والتركية. والكردية. وانتخب ممثلاً عن القدس في البرلمان العثماني في سنة ١٨٧٨م.^{١٩}

تضمنت رسالة الخالدي الشهيرة التي عنوانها «ما يمليه ضميري عليّ» نوعاً من النبوءة. وأظهر فيها معرفة فائقة في المسألة الصهيونية. وكتب:

هل من أحد يمكنه التناكر لحقوق اليهود في فلسطين؟... تاريخياً هذه بلادكم كذلك... [لكن]. لا يمكن للحركة الصهيونية السيطرة على الأرض المقدسة دون اللجوء للمدافع والسفن الحربية... لذا، ولضمان سلامة اليهود في الدولة العثمانية، يجب وقف التطلعات الصهيونية بمفهومها الجغرافي... الكرة الأرضية واسعة بما فيه الكفاية. وهناك مناطق كثيرة ما زالت خالية من السكان يمكنها استيعاب ملايين من فقراء اليهود والذين سيجدون هناك ما سيسرهم وقد ينشئوا هناك لهم دولة. هذا هو الحل الأمثل والأكثر معقولية للمسألة اليهودية. وأرجوكم. باسم الرب. دعوا فلسطين تحيا بسلام.^{٢٠}

والى جانب آراء يوسف الخالدي. سجّل أبناء عائلة الحسيني المقدسية. مواقف متضاربة بشأن الهجرة اليهودية والحركة الصهيونية في أواخر القرن التاسع



يوسف ضيا الخالدي

الاستيطان اليهودي مثل منظمة «حوبيي تسيون» أو اللورد روتشيلد «أن يمهّدوا الطريق لأبناء جلدتهم لإنشاء مملكة مستقلة في الأراضي المقدسة كما كانت قبل المسيح»^{٢١}.

وما عدا بعض المقولات والكتابات المتفرقة وغير المتعاقبة لا يمكن الإشارة لبلورة توجّه عام عند الفلسطينيين ضد الحركة الصهيونية أو الهجرة اليهودية. والأقوال التي ذكرت أعلاه تشير لعدم الرضا عن الأهداف الصهيونية من ناحية، ولوجود فهم للحركة الصهيونية ووعي بمراميها من ناحية أخرى. ولكن لا توجد شهادات تشير لتكوّن وتبلور حركة احتجاج عامة ضدها.

وبعد أربع سنوات من مقالة المشرق نشرت دورية المنار مقالاً افتتاحياً طويلاً في المسألة الصهيونية عنوانه «حياة أمة بعد موتها»^{٢٢} وقد ظهر المقال مباشرة بعد المؤتمر الخامس للجمعية الصهيونية في مدينة بازل. في هذا المؤتمر قدّم هرتسل تقريراً عن اتصالاته مع السلطان عبد الحميد الثاني. وعبّر محرر المنار، محمد رشيد رضا عن تقديره وانفعاله من نجاح اليهود (الصهيونية)، وبدأ مقاله بخطبة وشكوى. فكتب:

أتى يعتبر المسلمون بأحوال البشر. وما في الأرض من الآيات والعبر. وعلى أبصارهم غشاوة [...] لا يصل إليها وعظ الواعظين، ولا تنبيه

عشر. وبينما طوّر بعضاً من أبناء العائلة علاقات صداقة مع قياديين من يهود القدس. ودرسوا العبرية. وباعوا أراضٍ للمستوطنين اليهود في القدس. عارض آخرون الهجرة والاستيطان اليهودي.^{٢٣}

كان من أكبر المعارضين للحركة الصهيونية منذ بداياتها طاهر الحسيني. مفتي القدس. وقد درس ماهيتها ومحصّ أهدافها. وأوعز للسلطات العثمانية في استانبول في عام ١٨٨٩م أن تحدد مدة الزيارة اليهودية لفلسطين بثلاثة أشهر وقصرها فقط على أداء الشعائر الدينية.^{٢٤} وكان لسليم الحسيني، رئيس بلدية القدس موقفاً مثابهاً. وقد ارتاب سليم الحسيني من توسع الاستيطان اليهودي في القدس. واعتقد أن هذا ناتج عن مؤامرة سياسية تسعى للسيطرة على المدينة. وبادر مع مجموعة من زعامات القدس في عام ١٨٩١م لتحرير عريضة ضد بيع الأراضي لليهود. وفي عام ١٨٩٧م استجابت الحكومة العثمانية لضغوط المفتي طاهر الحسيني وألّفت لجنة برئاسته للتحقيق في مسألة شراء الأراضي. وقد أوصت هذه اللجنة بوضع محاذير متشددة ضد شراء الأراضي. وقد تبنتها الحكومة.^{٢٥}

نشرت دورية المشرق الكاثوليكية بإدارة الآباء الكاثوليك في كلية مار يوسف في بيروت. والتي بدأ صدورها عام ١٨٩٨م. مقالاً للأب هنري لمنس في السنة الثانية لها تحت عنوان «اليهود في فلسطين ومستعمراتهم»^{٢٦} وقد بيّن كاتب المقال الدافع لكتابة مقاله فقال: «أتتنا الأعداد الأخيرة من جرائد الأستانة العليّة وفيها كلام مسهب عن اليهود وانتشارهم في فلسطين. وربما استلقت أصحاب هذه المقالات أنظار ذوي الأمر إلى استدراك ما يعدّونه مخالفاً لنظام الدولة. ويؤيدون قولهم بذكر الأوامر الشريفة التي كرّرتها مراراً الحضرة السلطانية في هذا الشأن. فكان ذلك داعياً لنا إلى البحث في المستعمرات اليهودية في فلسطين لنفيد القراء عن عددها وشيء من أحوالها. مستندين في ذلك إلى تقارير أعلنها اليهود في مجلاتهم ونقلتها عنهم مجلة الجمعية الفلسطينية [الألمانية]. وقد تحقّقنا بنفسنا من صحّة بعض هذه الإعلانات في سفرة باشرناها في تلك النواحي»^{٢٧}.

ويعدّ هذا المقال جميع المستوطنات اليهودية التي أقيمت في فلسطين منذ عام ١٨٨٢م. ويضيف معطيات ديموغرافية. ويذكر مساحة كل مستوطنة. ومصادر معيشة سكّانها. وأنواع المزروعات في كل واحدة منها. ويذكر الكاتب أن في بعض المستوطنات يعمل مزارعون عرب حسب شروط العمل المتعارف عليها في البلاد. وأكد الكاتب أن أهداف القيمين على

المنبهين. فالعبرة بعيدة عنهم ما دامت هذه الحوائل والموانع بينهم وبينها وسننبه عليها في هذه المقالة وإن كنا فضلنا القول فيها من قبل. [...] لو كنا نسمع أخبار الأمم سماع تدبر. أو نعقل الحوادث بحكمة وتبصر. لما كنا نضرب المثل إلى اليوم بذل اليهود وضعفهم. ونخشى أن نكون في يوم من الأيام مثلهم. ونحن لا نعرف أنفسنا ولا نعرفهم.

يا ليتنا كنا نبصر الطريق الذي يسير اليهود فيه الآن [...] هل هو طريق [...] الانتصار على المناصبين من غير عمل؟ أم هو طريق آخر اعتبروا فيه بسنن الله في خلقه فحافظوا على لغتهم وجامعتهم المليئة مع تشتتهم في جميع أقطار الأرض. وتقرّب بعضهم من بعض بالتعاقد والتعاون. وأخذوا بجميع علوم العصر وفنونه النافعة وبرعوا في جمع المال الذي هو أساس القوة والعزة في هذا العصر؟ أليس هذا هو الطريق الذي استقام عليه الإسرائيليون في هذا العصر فنبتت شوكتهم المخضودة. وعادت عزتهم المفقودة. ولا ينقصهم أن يكونوا أعظم أمة على سطح الأرض إلا الملك. وهم يسعون إليه من طريقه الطبيعي [...] عن طريق [جمعيات مليّة كثيرة ولا نجاح للأمم إلا بالجمعيات.

وبعد ذلك كرّس رضا مقاله لبحث موضوع الحركة الصهيونية. وكتب:

لم نسمع بذكر الجمعية الصهيونية إلا من نحو خمس سنين وهي جمعية سياسية غرضها الاستيلاء على البلاد المقدسة لتكون مقر ملكهم وعرش سلطانهم ... ولم تكن تظهر في أول الأمر طلب الملك وإنما كانت تتظاهر بحب نقل فقراء اليهود إلى فلسطين. ليعمروها. ويعيشوا في ظل السلطان آمين. وكأنها وثقت بقوتها الآن. فخرجت من مضيق الكتمان. وقد بعثت منذ ستة أشهر إسرائيل زنجويل [المقصود هرتسل] من لندرة إلى الأستانة للمساومة في شراء القدس الشريف. ويقال أنه لقي من الحضرة السلطانية التفاتاً وانعطافاً. وبعد رجوعه خطب في الجمعية [الصهيونية] وقال: أن اليهود سيعودون بكثرة إلى فلسطين مملكتهم القديمة... وسيبلغ عددهم فيها سنة ٢٠٠٠ أي آخر القرن العشرين

المسيحي مائتين ألف ألف (مليونين) نفس. وسيجعلون تلك الأراضي جتات عالية... ويصلون أرجاءها وأطرافها بالسكك الحديدية ويقومون فيها حكومة منتظمة خاصة بها تكون نموذج الكمال. لجميع الأمم والأجيال....

وحسب المنار فقد قال زنجويل [هرتسل] أنّ «غاية ما يرمي إليه اليهود وهو جمع النقود الكافية لايتباع أرض فلسطين من السلطان... وقد بلغ ما جمع إلى الآن ألف ألف ريال أميركاني (مليون) ... ويرجى أن نوفق في بضع سنين لجمع مقدار من النقود يكفي لبلوغ الغاية ونيل الأمنية...» وتساءل رضا: «فهل ينشط المسلمون في مصر وهم يقربون من عدد يهود الأرض لمساعدة الجمعية الخيرية بجمع ألف ألف قرش على إنشاء مدرسة كلية في القطر المصري؟»

وفي نفس المقال قدم رضا للقراء ترجمة لمنشور نشره فرع الإسكندرية للجمعية الصهيونية في صحيفة يهودية فرنسية لدعوة اليهود إلى سماع الخطب والمناقشات. وقام رضا بهذا العمل ليكشف للقراء الأهداف السياسية والعلنية للحركة الصهيونية. وقد جاء في المنشور المعنون بـ«دعوة صهيونية ليهود الاسكندرية»: «إن شعبنا ما برح يعلل النفس بأن تكون له دولة ولن يتوانى في السعي مهما عارضته الصوارف. وناهضته الصوارف... وقد مضى على [إبعادنا] عن بيتنا المقدس ألفا سنة... وعجزت كل المحاولات لمحونا وعزلنا عن عقائد إسرائيل. وإن قواعد ديننا وأحكام شريعتنا تقضي علينا بان نستمسك بعروة وطننا القديم ونعتقد أن سيعود إلينا مجدنا التليد ومكانتنا السامية. تمزق شعب إسرائيل كل ممزق وتفرق شمله في الأرض ولكن بلاد صهيون كانت معهد الارتباط بين أفرادهم... وبسببها بقينا محافظين على سنن الآباء والجدود... فالمشروع الصهيوني يطالبنا الآن بالمبادرة إلى العمل... لتأييد النهضة المليّة التي تأسست في النمسا من أفاضل شعبنا لحفظ حقوقنا المقدسة.» المنشور أعلاه ممضي بإمضاء بار كوخيل فرع الإسكندرية.

وبعد الانتهاء من الترجمة أضاف رضا وبمرارة: «ماذا عسانا نقول الآن في تنبيه قومنا إلى الاعتبار باتحاد اليهود وسعيهم لاسترجاع مجدهم. بل لأن تكون لهم مملكة تقتدي بها جميع الممالك فيكونوا أئمة للعالمين؟» وذكر رضا قراءه بما كتبه قبل أربع سنوات في نفس الموضوع... «فماذا نقول اليوم؟... وليس من موضوعنا بيان نتائج سياسة كل أمير من أمراء المسلمين

فمجموعها ما نحن فيه... ولا شك أنهم لم يحفظوها من الهلكة. ولا نريد من مقالنا هذا أن تخرج الأمة عليهم... نريد أن لا نعتمد الأمة عليهم بل تسعى بكل ما في طاقتها لتحصيل العلوم النافعة والثروة الواسعة والتربية الرافعة... حتى إذا صاروا أمة حقيقه لها رأي عام قوّموا الملك بتقييده بالشرع والشورى سالكين في ذلك الطرق الحكيمة التي لا تخشى مغبتها. ولا تحذر عقابها»^{٣٨}

وبعد حوالي سنة من نشر المقال أعلاه تطرق المنار من جديد للمسألة الصهيونية وكتب: «الشعب اليهودي مُبْعَضٌ إلى جميع الشعوب والأمم لا يتسع له صدر إلا صدر المسلمين. ألم تر أن الذين تطردهم الممالك وتخرجهم من أرضها لا يجدون في الغالب ملجأ إلا بلاد الدولة العلية حتى بلاد فلسطين التي يطمعون أن يستقلوا بها ويحدثوا فيها ملكا جديدا»^{٣٩}

بُعِيد انْقِلَاب «تُرْكِيَا الْفَتَاة»: تَعَاظِمِ ثِقَلِ الْمُتَقَفِّينَ وَتَبَدُّلِ النِّقَاشِ الْعَامِ

أطاح انقلاب تركيا الفتاة في تموز/يوليو ١٩٠٨م بالسلطان عبد الحميد الثاني وأعاد الانقلابيون الدستور العثماني المعطل منذ عام ١٨٧٨م. وفي أعقاب الانقلاب تقلصت الرقابة على الصحف. وبدأ العمل بجدية لإعادة نشاط البرلمان الذي أوقف عن العمل قبل حوالي ثلاثين عاما.

نظّم أعضاء جمعية تركيا الفتاة أنفسهم بعد الانقلاب في حزب وجمعية «الاتحاد والترقي». وسعى هؤلاء لتقوية أواصر الوحدة العثمانية بواسطة إنتاج هوية سياسية عثمانية تجمع بداخلها جميع الأقليات في الامبراطورية. وفي ظل نهوض الحركات القومية في البلقان وتصاعد الحركات الانفصالية فيها وتعاضم المطالبة الأرمنية بالانفصال عن الامبراطورية العثمانية والحصول على حكم ذاتي. عارضت تركيا الفتاة وبشدة تطلعات الأقليات القومية. وضمنها التطلعات السياسية للحركة الصهيونية. ولكن لم يفرض على اليهود بصفتهم طائفة دينية أية قيود تتعلق بحرية الحركة والتمازج مع الهوية العثمانية.^{٤٠} لم يعارض المثقفون الفلسطينيون السلطة الجديدة في بداية طريقها بل أيدوا بشدة مبادئ الأخوة والمساواة والحرية التي تغنى بها الانقلابيون.

وتمازجت الطبقات الاجتماعية العليا. وخاصة القيادات المقدسية. مع النظام الجديد. ورحبت فروع «الاتحاد والترقي» بانضمام أعضاء يهود لصفوفها.^{٤١} وفي الانتخابات التي جرت في خريف ١٩٠٨م للبرلمان الأول بعد الانقلاب انتخب. كما متوقع. ممثلون عن الطبقات العليا الفلسطينية المعروفة من قبل الانقلاب. وفي حزيران ١٩٠٩م أثار عضو برلمان من يافا. ولأول مرة. المسألة الصهيونية في البرلمان العثماني باستنوب.^{٤٢} وقد فعل ذلك بواسطة استجواب برلماني سأل فيه عن أهداف الصهيونية ومدى ملاءمة هذه الأهداف مع مصالح الدولة العثمانية. وإثر هذا الاستجواب قررت الحكومة العثمانية دراسة الموضوع برمته. وتشكلت لجنة لذلك. وجرت في الحكومة عدة مناقشات حول الموضوع. ويمكن لنا تلخيص الموقف العثماني الرسمي باستعداد الحكومة لقبول مهاجرين يهود للامبراطورية. مع وجود معارضة صارمة للتطلعات الصهيونية القومية في فلسطين.^{٤٣}

وفي أعقاب إثارة موضوع الصهيونية في البرلمان العثماني وتكثيف بحثها في الحكومة. نشرت جريدة هتسفي (العبرية) في بداية تشرين ثاني ١٩٠٩م في عددتين متلاحقتين لقاءين خاصين مع العضوين المقدسيين في البرلمان سعيد الحسيني وروحي الخالدي. ابن أخ يوسف الخالدي المذكور أعلاه. وقد عبّر سعيد الحسيني في اللقاء الأول عن موقف مشابه لموقف الحكومة العثمانية. أي استعداده لقبول مهاجرين يهود للسكنى في أرجاء الدولة العثمانية ما عدا في فلسطين. وليس كمجموعة قومية.^{٤٤} وتطرق اللقاء الثاني مع روعي الخالدي. وقد نشر في اليوم التالي. لمسائل شتى. وحين وصل للمسألة اليهودية كتب من أجرى المقابلة:

ها قد وصلنا للقضية الصعبة. [...] سألتها ما رأيه وما موقفه من مسألة هجرة اليهود إلى هنا حين تبحث هذه القضية في البرلمان [...] وأعتقد أنه من الجيد أن نطلع جميعا على ما سمعته من الخالدي. على الرغم أن كلامه قد لا يعجبنا.

[...] أجب أن الأخوة والتقارب بين العرب واليهود هو أمر طبيعي والأكثر إلحاحا. نحن حقا أخوة. بالعلاقات الاجتماعية وفي الفكر وفي الدين وحتى في التاريخ. وللأسف لا ألمس من الجانب اليهودي. وخاصة اليهود الأشكناز. أية ميول للتقارب معنا. انهم يعيشون بعالمهم الخاص. ولا يبنون أية علاقة معنا.

وفي مسألة هجرة اليهود لفلسطين ذكر الخالدي للصحفي:

يجب إبقاء أبواب البلاد مفتوحة أمام المهاجرين الأفراد، ودون أي عائق. لكن إقامة مستوطنات يهودية - فهذه مسألة أخرى. اليهود يمتلكون مقدرات مالية ضخمة، ويمكنهم شراء أراض كثيرة وينزعوا ملكية الفلاحين العرب عن أرض آباءهم وأجدادهم. نحن لم نحتل البلاد منكم. نحن احتلناها من البيزنطيين الذين سيطروا عليها حينذاك. نحن لسنا مدينون لليهود بشيء. لم يكن اليهود هنا حين استولينا على البلاد...

شعر الصحفي بعدم الارتياح من هذه الاجابة، وسأل: «لكن، سيدي [...] ما الضرر الذي سببه اليهود للفلاحين؟ [...] هل لم يشكل اليهود مثلاً يحتذى به [...]؟ وما الضرر الذي سببته الاستيطان اليهودي للبلاد وللـفلاحين؟» أجاب الخالدي: «أنا لا أنكر ذلك. لكن، وعلى كل حال سنعمل كل ما بوسعنا لمنع تحقيق أطماع الصهاينة...» وهكذا انتهى اللقاء، حيث كان الضيف مشغولاً بالتزامات وموايد سابقة.⁴⁹

وفي أعقاب الانقلاب العثماني أنشأ مثقفون فلسطينيون في القدس ومدن أخرى جمعيات كثيرة انتمى أعضائها في الغالب للطبقات الاجتماعية العليا. وشارك أعضاء من كل الطوائف في إدارات الفروع المحلية لحزب الاتحاد والترقي الذي مثل أهداف تركيا الفتاة. ومثل فرع الحزب في القدس روح الإخاء العثماني أكثر من أي فرع آخر. وبرز بين أعضائه المربي والمثقف الفلسطيني خليل السكاكيني (١٨٧٨-١٩٥٣م)، والذي أنشأ عام ١٩٠٩م المدرسة العلمانية الأولى في فلسطين، والتي فتحت أبوابها لجميع أبناء الطوائف. وتعرض السكاكيني في يومياته التي نشرت في ثمانية مجلدات مرّات عدّة للموضوع الصهيوني واليهودي.⁵¹ وكانت له اتصالات مباشرة وصدافة متينة مع بعض اليهود في القدس، ودرّس طلاب يهود من القدس دروساً خصوصية باللغة العربية. والسكاكيني، كباقي المثقفين الفلسطينيين، ميّز ما بين موقفه بالنسبة لليهود وما بين موقفه بالنسبة للمسألة الصهيونية. شكّل اليهود في نظره، بوصفهم مجموعة دينية، جزءاً لا يتجزأ من المشهد العثماني المقدسي. وفي إحدى المناسبات، حين زيارة روتشيلد، «كبير اليهود في هذا العصر» سجّل السكاكيني في يومياته: «ومع ما يقال عن نهوض الأمة اليهودية وتنبه شعورها الجنسي

[القومي] ونزوعها إلى إعادة حياتها الاستقلالية في فلسطين. فإني لا أزال أرى فيها تلك الأمة المنحطة.»^{4٧} وعلى الرغم من ذلك، شكّل إحياء الشعب اليهودي لدى السكاكيني، كما للكثير من المثقفين، أداة للنقد الذاتي ودافعا لهزّ الشعب العربي لإيقاظه من سباته. وكتب:

«إذا ما كانت الأمم تمر بها أدوار تنام بها وتستغرق في سباتها، فالأمة العربية اليوم في دور سباتها. ولكن مع ما بلغت إليه من الضعف والانحطاط فإنها لا تزال أرقى من الأمة اليهودية. وهي لا تحتاج في نهوضها من دركات تأخرها ووهنها إلا أن يتنبه فيها شعورها الوطني [كما حصل لليهود].. الأمة العربية تحتاج إلى رجل مثل روتشيلد ينفق أموله في سبيل إحيائها.»^{4٨}

وقد شرح السكاكيني موقفه المعارض للصهيونية «لأنها تحاول أن تبني وجودها الاستقلالي على أنقاض غيرها». وأضاف: «ولست أعجب إلا من الحكومة العثمانية التي ترى ذلك ولا تتلافاه. ومن الحكومات الأوروبية التي تحاول أن تتخلص من اليهود على نفقة غيرها.»^{4٩} وعلى الرغم من موقفه المعارض للصهيونية، فقد نظر إليها كعامل يؤدي للتقدم. وحين أقام مدرسته في القدس، وتمّ تعيينه عضواً في لجنة المعارف المحلية، كتب: «لا بدّ أن تكون مدارسنا نافعة مفيدة من عدة أمور» ومن أجل ذلك طالب لجنة المعارف الحكومية لزيارة المدارس اليهودية للتعرف على أساليب الإدارة العصرية ومناهج التدريس وطرقها وللتعرف إلى كتب التدريس العصرية التي يدرسونها في مدارسهم.⁵⁰

لم يؤثر موقف السكاكيني تجاه الصهيونية على علاقاته الشخصية مع أصدقائه اليهود. بل وكان على استعداد تام لدفع أثمان عالية بسبب هذه الصداقات. وهذا ما حصل في عام ١٩١٧ حين لاحقت السلطات العثمانية أتر لفين، من قيادات يهود القدس، والذي اتهم بالخيانة. كان لفين جاراً للسكاكيني في الحي الأمريكي في القدس، وحينما قام السكاكيني باخفاء لفين في بيته، سُجن معه ونقل إلى سجون دمشق. وفصّل السكاكيني بيوميانه تفصيلاً فترة السجن التي قضاهما مع لفين حتى الإفراج عنهم مع اقتراب نهاية الحكم العثماني (نفس المصدر، خلال صفحات عدة).

وبالمجمل، وعلى الرغم من موقف الحكومة المعارض للاستيطان القومي اليهودي بعد ١٩٠٨ وسياساتها التي اعتمدت منع الحركة الصهيونية من امتلاك أراض في البلاد، إلا أن ذلك باء بالفشل. وامتلكت الحركة الصهيونية الأراضي بواسطة يهودا



محمد كرد علي مؤسس صحيفة «المقتبس».

عام ١٩١١م. وبعد تعاضم النشاط الصهيوني وتكاثر عمليات بيع الأراضي للحركة الصهيونية. نشر أول كتاب من نوعه عن الصهيونية استناداً إلى مصادر صهيونية. وفي هذا الكتاب. وعنوانه «الصهيونية: تاريخها. غرضها وأهميتها ترجمة عن الموسوعة اليهودية»^١ سعى نصّار لزيادة الوعي الفلسطيني «لأخطار الحركة الصهيونية». والكتاب عبارة عن ترجمة كاملة لمادة «الصهيونية» الواردة في الموسوعة اليهودية. وأراد من خلالها إقناع قرائه بصدق أقواله وموقفه من الصهيونية ورد هجوم الكتاب الصهيونية عليه. وقد اتهم هؤلاء بالمبالغة والترويع والضرر بعلاقات الصداقة والمحبة بين الشعوب والطوائف العثمانية.

وعلى الرغم من مواقف نصّار المعارضة جداً للصهيونية. إلا إنه لم يخف إعجابه بإنجازاتها. وموقفه هذا لم يكن استثنائياً. بل اتبع فيه خطى مثقفين فلسطينيين كتبوا في المسألة الصهيونية. وسبقوه بإبداء الإعجاب بها. وقد عبّر نصّار عن موقف الإعجاب هذا بوضوح في مقال نشره في ٢٠ أيلول/سبتمبر ١٩١٢م. فبعد أن انتقد بشدة المجتمع والقيادات العربية. التي تعمل كل ما بوسعها للحفاظ على مصالحها الشخصية على حساب المصلحة العامة. قرر أنه لا يصلح حال المجتمع الفلسطيني «غير جامعة وطنية يقوم بها الشبان المتفانين والنشيوخ العقلاء الخبيرين. تصلح أحوالنا الاجتماعية [...]». ولكم في تدابير الصهيونيين الذين قاموا لإحياء قوميتهم وجمع جامعتهم في بلادكم على حسابكم وفي تنظيم مدارسهم وإدارتهم الزراعية. وفي مصارفهم وجامعتهم خير مثال به تقتدون. فإن انتبه عقلاؤكم لذلك وتحركت منهم الهمم وقاموا بما يجب نجت البلاد مما يهددها وإلا فلاضحلال قريب»^٢

رعايا عثمانيين. وتكاثر بهذه الوساطة المستوطنات اليهودية الصهيونية. ولم تعد المسألة الصهيونية مسألة نظرية فقط.

الصحافة الفلسطينية والمسألة الصهيونية

بعد الانقلاب العثماني ازبلت العوائق التي اعترضت ترخيص الصحافة الخاصة في فلسطين. وخلال فترة قصيرة ظهرت مجموعة كبيرة من الصحف الخاصة. وأشهرها والأكثر صلة بموضوعنا كانت صحيفة الكرمل. وصاحبها نجيب نصّار. والتي صدرت في حيفا في أواخر عام ١٩٠٨. وصحيفة فلسطين. التي اصدرها الأخوان العيسى في يافا عام ١٩١١. وإضافة لهاتين الصحيفتين شملت صحيفة المقتبس الدمشقية مقالات عديدة عن الصهيونية. وكانت المقتبس واسعة الانتشار في فلسطين ووظفت مراسلين خاصين في المدن الفلسطينية الرئيسية.

الكرمل

خصصت جريدة «الكرمل» الحيفاوية. لصاحبها نجيب نصّار وهو مثقف فلسطيني أرثوذكسي من أصل لبناني. مقالات عديدة في المسألة الصهيونية. ونقلت كثيرا من أخبار الحركة الصهيونية. واهتمت أكثر من غيرها بفضح بيع الأرض من قبل ملاكها الفلسطينيين والغائبين اللبنانيين والسوريين. وعادة انتقدت صحيفة الكرمل موضوع بيع الأراضي بشدة ولم توفر سهام نقدها أحد مَن تجرّأ على بيع أرض للحركة الصهيونية. حتى وإن انتسب البائع لأبناء ما سُمّي بالطبقات الاجتماعية العليا مثل عائلة عبد الهادي. التي كانت من أقوى عائلات فلسطين في جبل نابلس. وفي مرحلة ما ضاقت صدور هؤلاء من انتقادات نصّار. وتصدوا له لكونه مسيحياً. وادّعوا أنه لا يحق له انتقاد «زعامات» المسلمين. وقد أثار إشهار المسألة الطائفية بوجه نصّار موجة عارمة من النقد من قبل العديد من رجالات الحركة الوطنية الفلسطينية. الذين قاموا بدورهم بالدفاع عن حميته الوطنية وإخلاصه في هذا المجال. عرف نصّار النشاط الصهيوني في منطقة الجليل جيداً. حتى قبل إصداره لجريدته في عام ١٩٠٩م. وفي

ونشرت صحيفة الكرمل مقالات لا عد لها بهذا المضمون. وبعد أيام قلائل من المقال أعلاه نشر نصار وعلى الصفحة الأولى مقالاً عنوانه «الوطن يستغيث»: لولاه [لولاً] الجهل لما سمعتم باسم جمعية صهيونية تتألف وتعمل على إحياء قومية اليهود وإعادة ملكهم على حسابنا وفي وطننا. لولاه لما رأيتم عثمانياً يبيع لصهيوني شبراً من الأرض أو ينفعه بشيء من المال. فإن العاقل لا يسلح خصمه عليه [...]. أيها الناشئة أنتم أبطال الحرب في ميدان تنازع البقاء. وعليكم أن تحاربوا قوتين: قوة من الداخل. وهم أبناء وطنكم الذين فسدت مبادئهم وتناهت أطماعهم حتى صاروا يستحلون بيع الوطن وإضعاف إخوانهم وأهلهم لزعمهم أن ذلك يعود عليهم بالحياة والقوة. وقوة من الخارج. وهي أطماع الدول الأجنبية الكبيرة والصغيرة والجمعية الصهيونية. وأنتم إذا تغلبتم على الأولى هانت عليكم الثانية.^{٥٢}

وعشية الانتخابات البرلمانية لعام ١٩١٢م انتقد نصار وبشدة حكومة تركيا الفتاة التي أطاحت بحكم السلطان عبد الحميد الثاني. وكلما ازدادت إنجازات الصهاينة تبلور موقف نصار بوضوح أكثر ضد سلطة تركيا الفتاة واتهم الحكومة في استانبول وأذرعها في فلسطين بتسهيل عمل الحركة الصهيونية بل والتواطؤ معها. وهاجم الحكومة مباشرة من على صفحات جريدته. وفي مقال نشر بتاريخ ١ تشرين أول أكتوبر ١٩١٢م قارن نصار بين فشل الحكومة بمعالجة ثورات شعوب البلقان وانسلاخهم عن الإمبراطورية العثمانية وبين الحركة الصهيونية وكتب «بعد مرور أربع سنوات على ذلك الانقلاب [١٩٠٨م] المملوء بالأمال والأمانى الجميلة سقط الاتحاديون [...] حتى أفقدوا المملكة اعتبارها السياسي والمالي [...] بل قاموا بعمل كبير يخلد لهم ذكراً مشنوماً في التاريخ العثماني. اشتروا لنا عفا المشكلة الصهيونية وهي ستصير يوماً في آسيا العثمانية أعظم من المشكلة البلقانية في تركيا وأوروبا. وإنني أشهدكم [بني] قومي على قولي هذا»^{٥٤}

وفي أوائل تشرين ثاني أكتوبر ١٩١٢م انتشرت شائعة بشأن بيع أراضي قريتي كركور وبيدوس. واللتين كانتا بملكية عائلة عبد الهادي. للحركة الصهيونية. لم يتوان نصار عن فتح هجوم كاسح امتد لأشهر عدة ضد البائعين. وافتتح نصار العدد ٢٩٠ بهجوم شديد اللهجة ضد زعامات عائلة عبد الهادي مباشرة وضد الموظفين العثمانيين الذين سمحوا وسهلوا عملية البيع هذه. فكتب:

كنا معتمدين على وطنية صاحبها الأميرين العربيين العثمانيين [من أبناء عبد الهادي] وظائين بأنهما شاعران بثقل مسئولية المحافظة على الجامعة والقومية والوطنية. [...] ما نفعكم إذا كنتم تتطلبون من وريقة [صحيفة الكرمل] أن تدراً خطر الاستعمار عنكم وحالكم كما تعلم؟ أين معارفكم وأين هممكم وأين وطنيتكم وأين جامعتكم التي تحدثون عنها؟ [...] لماذا دائماً أيها الشرقيون تظهرون بمظهر المهمل شوؤونه الناحر نفسه بيده ثم يلعن الكلاب إذا هي لحست دمه والكواسر إذا نهشت جسمه؟ ويطلب ممن لا قوة له حراسة الجثة من الضواري. اعلموا أن وريقة الكرمل وحدها لا تحييكم ولا تحميكم. فأدركوا أنفسكم وعالجوا أمراضكم بأيديكم [...]. أنتم تسهلون لعنصر أجنبي غريب يسعى لجمع شتاته من أقاصي الأرض في بلادكم وعلى حسابكم وإحياء قوميته وتأمين استقلاله في مملكته [...]. اليوم تفررون وتبيعون وتنقصون عديدكم ومملككم وثروتكم بأيديكم وبأختامكم وتزيدون عديد الغير وثروته وملكه. وإذا قوي عليكم وعاملكم كما يعامل القوي الضعيف فإلى من تشتكون وعلى من تعتمدون أيها العالمون المتجاهلون؟ أم تدوسون بأقدامكم مستقبلكم لتتلذذوا لذة وقتية فيها عذاب لكم ولأولادكم من بعدكم وهو دائم وأليم. [...] ما هذا يا قوم؟ وماذا أصابكم؟ أبشر أنتم؟ أم ماذا؟ ما هي مبادئكم؟ أنا ما عدت أطيق أن ألقب بشرقي وأحمل على رأسي اسمكم. حاكموني بل احكموني بل اقتلوني بل أحرقوني. ذلك أخف عذاباً علي من الحياة معكم وبينكم [...]. أخشى أن يكون مرضكم فالجاً لا يعالج.^{٥٥}

المقتبس

صدرت صحيفة المقتبس في دمشق في أواخر عام ١٩٠٨م ومحررها وصاحبها محمد كرد علي. من المؤيدين المتحمسين لانقلاب «تركيا الفتاة» ومن المدافعين عن الهوية العثمانية التي تساوي بين حقوق جميع المواطنين. وعندما تيقن أن الحكم الجديد يسعى ليس للعثمنة بل للتريك. أي تفضيل اللغة والقومية التركية على حساب باقي مركبات الدولة وإزاحة العرب

لهامش المجتمع العثماني. اتخذت الصحيفة خطأً قومياً عربياً واضحاً.

حتى بداية ١٩١٠م لم تشكل الصهيونية موضوعاً رئيسياً في المقتبس. ومنذ هذه السنة وبعد أن اتضحت الأهداف السياسية للحركة الصهيونية. انشغلت الجريدة وبكثافة في المسألة الصهيونية واتخذت موقفاً ناقداً بشدة تجاه الحكومة العثمانية والزعامة الفلسطينية اللتين سهلنا حسب رأي المقتبس. إنجاح الصهيونية. وكانت للمقتبس علاقات وثيقة بالكرمل. وبين الفينة والأخرى نشرت الصحيفتان مقالات مشتركة ناقدة جداً للصهيونية.

ومن أوائل هذه المقالات برز مقال نشر في ١٥ آذار/مارس ١٩١٠م. بقلم الشاب الحيفاوي عبدالله مخلص. والذي سيصبح من أهم المثقفين الفلسطينيين. وقد أشار مخلص في مقاله التي عنوانها بـ «كتاب مفتوح إلى مجلس النواب» للمخاطر المتوقعة للمشروع الصهيوني على المجتمع الفلسطيني. وحوى المقال ما يمكن تسميته مجازاً بالنبوءة التي تحققت بعد مرور ثمان وثلاثين عاماً. ولأهمية هذا المقال سأقتبس هنا مقاطع واسعة منه. وفي الواقع تبني الكثيرون ممن كتبوا ضد الصهيونية أطروحة مخلص. وأصبحت حجر الأساس لكل من كتب ضد الصهيونية في الصحافة الفلسطينية أو في صحف أخرى. كتب مخلص:

لم يكده يعلن الدستور [العثماني] حتى أخذت الأسرات الإسرائيلية الأجنبية تفد على فلسطين بكثرة فنستأثر بالتجارة وتحتكر الصناعة وتزاحم الفقراء في مناكب العيش. أنشأت الجمعية الصهيونية لها فروعا من بنك أنجلو فلسطين في كل ثغور فلسطين المهمة. تشتغل للإسرائيليين فقط فتسلفهم المبالغ الطائلة بفوائد طفيفة لا تكاد تذكر. وهي لا تربو على اثنين في المائة. ولا تضنّ على الإسرائيلي الخالي الجيب بمئتين من الذهب ليتسنى له استملاك عقار في فلسطين ثم يدفع ثمنه أقساطاً على آمامٍ بعيدة. ويصبح رب دار وحنوت بطريق الأجرة وهو لا يشعر.

كان زمن الاستبداد [فترة عبد الحميد الثاني] يشدد النكير على استملاك الصهيونيين في فلسطين فيقيم في طريقهم العثرات. ومع ذلك فقد كانت قوة الأصفر الرنان تغلبه على أمره أحياناً فتمكنوا بالمواطأة من استملاك الأقسام المهمة. وكان يأتي ذلك

الغريب ثغور فلسطين فلا تطأ قدمه البر إلا بعد أخذ الموائيق عليه حتى إذا زار بيت المقدس وبقيّة الأماكن أرجعوه القهقري أو جعلوه بقرة حلوب يستدرونها صباح مساء. وقد أصبحوا الآن يدخلونها بسلام آمنين. ونحن لم نقرأ ولم نسمع أن حكومتنا الدستورية التي لا بدّ أن تكون أبعد نظراً في العواقب من تلك الفئة المنقرضة أنها أمرت بذلك وفيه ما فيه من القضاء المبرم على مستقبل البلاد. بل نراها تحرص على كل ذرة من ذرّات مملكتها لئلا تقع في شرّ الامتيازات الأجنبية التي أثقلت عاتق الدولة. ومنذ أزمان نراها تحرص المأمورين على منع الأجانب من السكنى والتملك وفقاً للقرار السابق الذي لا يجوز نقضه إلا بقرار من مجلس النواب. ولكن من يقرأ ومن يسمع. لأن الفترة الهائلة التي تكون بين أمر وأمر. ولا سيما بين استبداد ودستور وظلمة ونور. تدع مجالاً لبعض من لا أخلاق لهم من الموظفين بالاشتراك مع بعض أغنياء البلاد بل مع فريق من أعيانها. ويحزننا أن ننعتههم بسماسرة السوء. فيقضوا على البلاد شرّ قضاء. ويؤثرون الحياة الدنيا على المبدأ الوطني الشريف وهو خير وأبقى. تجد الآن للصهيونيين في جميع فلسطين القرى والساكن وهم يسمونها بالمستعمرات. كأنهم استعمروا مجاهل إفريقية واكتشفوا قطبي أمريكا.

تلقاهم اليوم وهم لا يعرض للبيع عقار وأرض في حيفا وما يليها إلا وينقضون عليه انقضاؤ الباز على صغار الطير. ويشترونه بأثمان باهظة لا تكاد تصدق.

ومواطننا الفلسطيني قصير النظر لا يعلم أن كيد هذا الذي يكيد اليوم سيكون وبالأعلى عليه في غده وأنه سيرد إلى نحره ويصبح مسوداً بعد أن كان سيّداً. فيبيع عقاره وأرضه لقاء ربح جلّ أو قلّ. ثم يقوم ليشتري أرضاً ثانية وقد ارتفعت أسعارها ارتفاعاً باهظاً. فلا ينجح. ويتوسل بعمل فلا يفلح. فيسقط في يده وتذهب تلك الثروة التي تركها له والده أو جده أدراج الرياح.

نرى معمل الصابون في حيفا وبقيّة المعامل الميكانيكية التي يتولى أمرها إسرائيليون لا تستخدم العمال إلا من أبناء نحلتهم. بل نرى الإسرائيلي لا يعامل مواطنه

المسلم أو المسيحي ولو على أقل قليل. بل يظل مهرولاً حتى يصل إلى مخزن ابن دينه ويشترى ويبيع منه ما شاء الله أن يشتري ويبيع. نحن نكبر هذا الاتحاد والوفاق ونتمنى لو ينسج عليه بقية مواطنينا فالتعاون من الأسباب الحيوية التي ترقى بالشعوب وترقى بها إلى قمة المجد والفخر.

والغريب أننا تلقى الجمعية الصهيونية تحاول أن [لا] تحمل على عاتقها تبعه السكنى في فلسطين وتعد ذلك خارجاً عن خطتها المعلومة. كما أشارت إلى ذلك في الوليمة التي أعددتها للنواب العثمانيين في باريس. بينما تجدها في عين المأدبة التي قامت بها في لندن تقدم لنا عمالاً نشيطين وأيدي عاملة من الصهاينة. وكما ترويه الصحف عنها أنها اتفقت على استعمار ما بين النهرين وأخذت أهبتها لذلك. فلا يثبت هذا الخبر بين عشية وضحاها إلا ويأتي عكسه. ويحجم الصهاينة عن سكنى تلك البلاد النائية. ويفررون بذل كل مرتخص وغال في سبيل استعمار فلسطين على زعمهم مهما أدى بهم الحال.

نحن لا نخشى - كما يتوهم بعضهم - من قيام الدولة الإسرائيلية بعد كبوتها ألوفا من السنين. ولا هم يحلمون بذلك لأنه ضرب من المحال. ولكننا نخشى أن ينبذ الدخيل الأصيل نبذ النواة ونخرج من بلادنا أفواجاً أفواجا. زرافاتٍ ووحداناً. ثم نميل بوجوهنا إلى بقعتنا النضرة فنبيكها ونرتبها ويصيبنا ما أصاب الأندلسيين في آخر أيام إديارهم. فيقول لنا لسان الزمان ما قالت أم عبد الله الصغير لابنها "ابك بكاء النساء على ملك لم تحفظه حفظ الرجال." ولكن الفرق بيننا وبين الأندلسيين أن الذي أجلاه صرف الدهر وأقصاه عن عرشه هو الملك وحاشيته. أما الذي يهيئه لنا الاستعمار الإسرائيلي فهو جلاء مئات الألوف وبينهم الشيخ والعجوز والطفل الصغير.

[...] وبالإجمال فإن البلاد الفلسطينية أصبحت على شفا جرف الخطر وقد لا يمضي عليها عشرات من السنين إلا ويعمل فيها ناموس تنازع البقاء عمله الطبيعي. وتتجلى أمامنا قاعدة الأئسب وتصبح البلاد ملكاً للأجنبي.

وبعد أيام قليلة من مقالة عبدالله مخلص نشرت صحيفة المقتبس مقالاً آخراً بقلم بولس شحادة. مثقف من حيفا. وعنوانه «الاستعمار الصهيوني». جاء فيه:

الحق الذي لا مرية فيه أن الجمعية الصهيونية ضربة شديدة على حياة الأمة العثمانية في سورية [...] إلا أن الأمة التي تسهل لها السبيل للوصول لذلك هي الأئمة [...] الأمة العثمانية لا تزال كما كانت قبل الدستور متشحة بلباس الجهل مبرقعة وجوهها ببرايق الغباوة [...]. إن أمة لا يفهم عشر معشارها حقوقه وواجباته. لا يعرف معنى الوطنية والجنسية والقومية. لا يدرك نفع الاتحاد والتآلف والانضمام حول المصلحة الواحدة من العبث أن تلقى اللوم عليها. أن أمة لا تزال تتطاحن وتتضارب لمسائل تافهة لا نفع منها. لا نقدر أن تلقى عليها بعث هذه التبعة الشديدة.

أين أمتنا من الأمة الإسرائيلية التي حنكتها الأجيال وعلمتها المصائب أن تتحد وتتكاتف للمصلحة العامة [...] لترد مجدها المسلوب وعزها المفقود. ولولا اتحاد كلمتها ووجود قادة الأفكار فيها وتماسكها لاندثرت كما اندثرت الأمم الغابرة وأصبحت أثراً بعد عين.

ووصل شحادة لاستنتاجات مشابهة لمخلص وأضاف بلهجة الفاهم واليائس معاً:

إذا كنا نرجو من أمتنا أن تنهض لمقاومة هذا التيار الجارف لمنع أن تدخل أراضي الفلاحين في حوزة الجمعية الصهيونية. وإذا كنا ننتظر من الفلاحين أن يتحدوا ويتكاتفوا نكون كمن يطلب من السراب ماءً زلاً ومن أشعة الشمس ذهباً وهاجاً [...] فمن العبث أن نطلب من أمتنا الضعيفة أن تقاوم هذه القوة الهائلة [...]. الحكومة هي القوة الوحيدة التي لا يستطيع أحد أن يقاومها.^١

وبعد أسبوعين ظهر في صحيفة المقتبس مقالاً آخر غطى الصفحة الثالثة بأكملها وعنوانه «الصهيونية: حكومة ضمن حكومة». لم يحمل هذا المقال توقيعاً بل نسب ل«كاتب من يافا». وقد جاء فيه:

من عرف فلسطين قبل عشرة أعوام. ثم ألقى بنظره عليها اليوم. رأى بها تغييراً تاماً يكاد يكون طفرة. وإن من كان نظره سطحيّاً يميل

غالباً إلى الاعتقاد بتلقي البلاد مادياً وأدبياً. لكن من ينعم النظر قليلاً تتجلى له الحقيقة بأسوأ حالاتها. إذ يرى الوطنيين وقد رجعوا القهقري في جميع أمورهم. فهم اليوم أفقر منهم بالأمس. إذ سُلبوا من الأموال والعقارات والأراضي التي انتقلت إلى الأجانب من الإسرائيليين المستعمرين. الذين لا يزالون يداؤون في بذل كل الوسائل لاستملاك ما بقي. وقد أسسوا لهذه الغاية عدداً كبيراً من الشركات والمصارف وكلها ترقى لغاية واحدة. ألا وهي استرجاع المملكة الإسرائيلية وتشديد دولتها حتى يتمكن اليهود بذلك من إيجاد وطن لهم ينتمون إليه كلما أصابهم اضطهاد من الأمم الأخرى. وهم معذرون في ذلك. ولكن ما عذر قومنا الذين يسلّمون بوطنهم لهؤلاء الغرباء الأجانب عن طيب نفس وخاطر؟ اللهم إنا لا ندري لذلك سبباً سوى جهل السواد الأعظم من الوطنيين ما لهم وما عليهم [...]

يزعم بعض المكابرين أن مهاجري الإسرائيليين قد عادوا على البلاد بالمنفعة المادية. لأنهم قد أحيوا جزءاً كبيراً من الأرض الموات برجالهم وأموالهم. وأنهم قد أدخلوا معهم قسماً كبيراً من الإصلاحات فاستفاد منهم الوطنيون استفادة كبرى. وتعلموا منهم الوسائل الحديثة في فني الزراعة والصناعة [...]. على أن المراقب لمجرى الأحوال يرى أن هؤلاء الإسرائيليين لا يألّون جهداً في الاستقلال بأعمالهم وتوزيعها على الأفراد منهم كلما رأوا إلى ذلك سبيلاً. فترى معاملهم لا يشتغل بها سوى العامل الإسرائيلي. ومستعمراتهم لا يفلح بها إلاّ الزارع الإسرائيلي. وإن وجد هناك وطني فلخدمة البسيطة أو للحرثة [...]. وهكذا أصبحت جميع المستعمرات الإسرائيلية في فلسطين بلداً مستقلةً يحكمها مجلس مؤلف من أهلها؛ ولها عدا عن ذلك مدارس وإدارات خاصة بها لا دخل للحكومة في شيء منها مطلقاً [...].

نقول إنّ أطماع الإسرائيليين كبيرة. وقد خطوا في سبيل الحصول عليها خطوات واسعة حتى أصبحوا ولهم من النفوذ والسلطان ما جعلهم يؤسسون حكومة صهيونية مستقلة ضمن الحكومة العثمانية.^{٥٧}

ووعدت صحيفة المقتبس القراء بالاستمرار في معالجة المسألة الصهيونية. وقالت أنها لن تتركها. وفي الواقع لم تخل أيّ من أعداد الصحيفة من بداية عام ١٩١٠م من التطرق لموضوع الصهيونية. وفي أيلول/سبتمبر ١٩١٠م نشرت الصحيفة سلسلة مقالات تحت عنوان «الاستعمار الصهيوني». وقد تواصلت هذه السلسلة من المقالات حتى ملأت أكثر من عشرة صفحات. وفي الحقيقة كانت هذه أطول مقالات صحفية ظهرت في الصحافة في الموضوع الصهيوني. وكل واحدة من هذه المقالات نُشرت على الصفحة الأولى وامتدت للثانية. وعالجت المقالة الأولى تاريخ اليهود من أيام سيّدنا إبراهيم وحتى العصر الحديث. وفي المسألة الصهيونية حذّر الكاتب قراءه وتبّههم أنّ: «ما يتلقونه في مدارس أوروبا وأميركا الراقية من العلوم المتنوعة فنية واقتصادية وسياسية وغير ذلك أصبحوا في منزلة تجعل في أنفسهم أملاً وقوةً إلى النهوض والحياة اللذين لا يتّمان إلاّ بالاتحاد. فأسسوا جمعية باسم الجمعية الصهيونية [...] فدخل في هذه الجمعية ألاف من الإسرائيليين في أنحاء المسكونة على اختلاف تابعياتهم ومواطنهم. ولكل مقصد واحد ووجهة واحدة [...] _ إعادة دولتهم القديمة [...] [على أرض فلسطين مرقد أنبيائهم وقاعدة دولهم المنصرمة منذ ٢٠٠٠ سنة.»

وبالنسبة للمجتمع الفلسطيني أشارت الصحيفة بأسف: «[إن] الفقر والجهل اللذين ضربا أطنابهما في البلاد [...]، و جهل الوطنيين وغفلتهم وعوزهم إلى الدرهم. وخيانة بعض المأمورين والسماسة الذين يبيعون نخوتهم بدراهم معدودة. زاد في أحلام الصهيونيين فاستعمروا ما قدروا على امتلاكه من الأرض»^{٥٨}

تمحورت المقالة الثانية حول التجديدات التي بدأت تظهر في المستوطنات اليهودية في مجال البناء وفي مجالات أخرى:

بدلوا شكل الأبنية وأدواتها فجعلوا العمد والبلاط وأمثالها من الرمل الأسمر والأسود والأبيض. وزينوا وجوهها برسوم ونقوش ليرغب فيها الناس. فأمتوا صناعة الأحجار التي كان ينتفع بها النحاتون والحجارون من الوطنيين. وبقي عمل صب الأحجار والبلاط والعمد من الرمل صناعة خاصة بهم لا يعرفها سواهم. وهي في الظاهر جميلة مختلفة الشكل والهندسة إلاّ أنها سريعة العطب. [...]

أحضروا حمّامات أوربية للاغتسال رخيص

ثمنها خفيف حملها تنقل في كل زمان إلى حيث أرادوا ففضوا على نصف الحمّات الوطنية المكلفة ألوفا من الليرات. [...]

ملنوا مخازنهم بأنواع الحوائج حتى أنك إذا دخلت مخزن أحدهم وجدت فيه الورق والقلم والصحن والطربوش والأقمشة والملقط والمنقل والمنخل والحذاء والمخلل والزيتون والسمك والسكر والخبز وأكثر لوازم البشر. ذلك كي لا يفلت أحد من أيديهم ولا يذهب الدرهم الواحد إلى غيرهم. إنهم يعينون فقيرهم ويقرضونه مالاً ويوجدون له عملاً [...]

لهم جرائد يومية وأسبوعية خاصة بهم وبلغتهم. [وأخرى] بالبلغتين الإفرنسية والإنكليزية [...]. وعدا ذلك فإنهم يدفعون إعانة مالية سرية لجريديتين عربيتين إحداهما في القدس والأخرى في يافا. فإن مديري سياستهما من المستعمرين أيضا [...]

يظهر أن المستعمرين أخذوا على عهدتهم إفساد أخلاق الشبيبة الوطنية. لذلك ترى أكثر نسائهم يغتسلن كل صباح ومساء في شاطئ البحر أي على قارعة الطريق وهن بأثواب لطيفة أرق من النسيم يشاهد منها الجسم والعورات كلها [...]

تعنتي جماعتهم اعتناءً عظيماً بأمر المدارس والتدريس. فقد أسسوا كثيراً منها. صناعة فنية علمية. حتى لم يبق فيهم فقير أو يتيم إلا ويدرس [...]. كما هي حالتهم في أوروبا. إنهم يشتغلون بالزراعة على الأصول الأوروبية [...]. فإنك إذا مررت في أيام الربيع بمستعمراتهم تأخذك الدهشة والعجب حينما تسأل عن الأرض الطويلة النبات الجيدة التربة [...]. ويستعملون آلات تجوب الفدان الواسع الأطراف فتحصد ما فيه بسرعة البصر بإتقان وانتظام. وتجهش بالبكاء حينما تسأل عن الأرض القاحلة القصيرة النبات فيقال لك إنها لفلان المسلم أو لفلان المسيحي. وكلهم من الوطنيين. حيث ترى العشرات منهم يقضون الأيام والليالي الطوال في حصد أرض صغيرة بمنجلهم القصيرة. التي ورثوها عن أبيهم آدم.^{٥٩}

وينهي الكاتب الذي وقّع المقالات باسم «الفلسطيني» سلسلة مقالاته باقتراح علاجات وطرق «للتصدي لهذا المدّ الجارف». كي يضمن الشعب الفلسطيني مستقبله. دعا لإنشاء جهاز تربية وطني وعصري. ودعا الحكومة أن تعمل بجدية لوقف انتقال ملكية الأراضي للمستوطنين ودعا للوحدة الوطنية.^{٦٠}

وفي سنة ١٩١١م طرح عضو في البرلمان العثماني المسألة الصهيونية للنقاش وحذّر من أخطارها وأضرارها على الدولة العثمانية. وخلال النقاش العاصف اتهم بعض أعضاء البرلمان الحكومة العثمانية بالتواطئ مع الحركة الصهيونية. وقد استوجب هذا النقاش العاصف رد رئيس الحكومة على الاتهامات. فكان ممّا قاله في مسألة الاستيطان الصهيوني: «إن البيانات [بشأن الصهيونية] هي من قبيل الأفاصيص والروايات. لأن العالم قد هزأ بالصهيونيين. وقد نعتهم بأربعة مغفلين ونصف. الذين يجذّون وراء نيل حكومة إسرائيلية في فلسطين [...]. وأوضح رئيس الحكومة أنّ هذا المسعى خيالي أكثر منها حقيقية. ومؤيدوا إنشاء حكومة صهيونية في فلسطين لا يتعدون بضعة نفر وعدة صحف.... ووأوضح الرئيس أنّ اليهود الذين يعرفون الحقائق... لا يغرهم الوهم ولا يعيرون تلك المبادئ أقل اهتمام.^{٦١}

وفي رد فعل على ما قاله رئيس الحكومة كتب «الفلسطيني»: «الذي نراه نحن أن الصدر [الأعظم] لم يصب المرمى في نعتة الصهيونيين بثلة مغفلين أو ضالين [...]. أن الصدر الأعظم قد غلبته عواطفه على امره [...]. يجب أن نعرف أن في عداد الصهيونيين رجالات علم وعمل يشار إليهم بالبنان وأن فيهم قوة أدبية ما فوقها قوة. وأن نعتهم بذلك وإن كان يؤلمنا، إلاّ أنه ينفعنا في يومنا وغدنا. ومن الأصلالة في الرأي أن لا يحتقر المرء عدوه مهما كان ضعيف الرأي والجلد [...]. إن خطب ومحاضرات [زعماء النهضة الصهيونية فيها من العبر والمواعظ ما يفيد وينفع كل أمة تريد النهوض من كبوتها والانتباه من رقتها... وكيف يوافق مصالحنا أن نحسبهم رقاداً وهم أيقاظ. ونظنهم بضعة خياليين. تاركين الحقيقة التي تنجلي أمام أعيننا وراء ظهرنا؟ هذا ما ينبغي أن نفكر به كل التفكير.^{٦٢}

فلسطين

اتخذت صحيفة فلسطين التي صدرت في يافا في عام ١٩١١م في بداية الأمر خطأً تصالحيّاً تجاه الحركة

منافعها وشؤونها الحيوية. وخصوصاً العنصر اليهودي الذي علّمه الاختبار التاريخي الطويل أن سعادته وحفظ قوميته قائمان بسعاد الدولة العثمانية وسلامتها. وبسرني بصفتي الرئيس الروحي الأكبر لليهود هذا البلد. الذي يعد من أهم مراكز الإسرائيليين. أن أقف لدى سبط أكثر صاحب الدعوات تساهلاً لأخاطب الإسلام أجمع بما تشعر به اليهودية نحوه من شعائر المحبة والاحترام بجميل حكوماته وحكامه من صدر الإسلام إلى يومنا هذا.

ولتعلم الإسلامية والمسلمون أنه من المستحيل على اليهودي المؤمن الصحيح الإيمان أن يضمّر الشر والعداوة أو أية نية غدر نحو سليلي الخلفاء المحسنين إلى أجداده. أو نحو أحفاد السلاطين العثمانيين المنقذين لأبائهم. وإنّ كل من يرمي اليهود بأية تهمة تخالف أمانتهم للدولة التي يفتخرون بالانتماء إليها فقد أخطأ إلى الحقيقة خطأ لا يُغتفر.^{١١}

وبعد أشهر قليلة على ورود ذلك الخطاب. وبسبب تكاثر الشكاوى في أعقاب تدهور الوضع الاقتصادي في يافا. نشر يوسف العيسى. محرر جريدة فلسطين مقالاً افتتاحياً في هذا الشأن كتب فيه:

في اعتقادنا أن السبب الأكبر في ضنك العيش الحاصل عندنا هو الزيادة المتواصلة في عدد المهاجرين من الإسرائيليين بيننا. وليلاحظ أننا لم نقل المهاجرين الأجانب بل قلنا المهاجرين الإسرائيليين. وسبب هذا الحصر سيظهر فيما سيأتي من هذه العجالة. ولا يجب أن يفهم القارئ مما قلناه أننا ننوي شن الغارة على هذه الأمة. لا. إننا أول من يعترف لها بحقها في أن تسكن وتعيش كيفما أرادت وفي أي أرض أرادت. وما على المتضرر منها إلا أن يحتاط لنفسه ويدافع عن شيبته. والدنيا كما لا يخفى دار عراك. ولكن بحثنا بحث عام فنحن نبدي ما عن لنا وربما نكون غير مصيبين فيما نرتبته....

من المؤكد أن هذه الزيادة في السكان تفيد البلدة وأن نشعر بها [الفائدة] لو كان المهاجرون إلينا من الذين يمتزجون مع أهالي البلدة التي يدخلونها فيصبحون وإياهم كتلة واحدة لهم ما لهم وعليهم ما عليهم وليس كما هي الحال عندنا الآن.

إن إخواننا الإسرائيليين المهاجرين قد أقاموا لهم أحياء خاصة وأسواقاً خاصة واصطلاحات خاصة... وكلنا نراهم أيضاً يأخذوا جميع لوازمهم من باتّعتهم وصانعهم وتاجرهم

الصهيونية. ونقلت بكثافة أخباراً اجتماعية من المستوطنات اليهودية. في المدينة وفي الريف. ففي ١٥ تشرين ثاني/نوفمبر ١٩١١م نشر مراسل الجريدة في اللد تقريراً عن احتفال جرى في مستعمرة بيت عوريف اليهودية الواقعة في قضاء اللد. شارك فيها أهل اللد. وقال المراسل أن هذه المشاركة «دلالة على وجود المحبة والألفة بين العناصر المختلفة». وأوضح أنّ من أسماهم إخواننا الإسرائيليين في بيت عوريف «دعوا للاحتفال مسلمي ومسيحيي اللد. فتوجه جمّ غفير من هؤلاء وأحيوا جميعاً ليلة زاهرة تليت أثناءها الخطب وأظهر المحتفلون كل حفاوة بمدعوئهم وانتهى الاحتفال بعد منتصف الليل.»^{١٢} ونشرت الصحيفة بين الفينة والأخرى أخباراً عن عقد قران واحتفالات زواج لدى اليهود. وعلى سبيل المثال أخرجت الجريدة عن «حفل زواج مبارك» في عيون قارة (نس تسيونة). ولم يغيب عن بال محررها أن يبارك للزوجين بالرفاه والبنين.^{١٣} كما ونشرت فلسطين باستمرار أخباراً عن مناسبات يهودية مثل المسيرات الاحتفالية والمناسبات العامة وصوم يوم الغفران واحتفالات عيد الفصح وعيد العرش وغيرها. من ذلك نشرها تقريراً عن «عيد الزهور» لسنة ١٩١٢م والمعروف باسم لاغ بعمور. وقد كتب المراسل: «احتفل إخواننا الإسرائيليون مساء الخميس بعيد الزهور في تل أبيب. وهو يقع في أول يوم من شهر آيار عندهم. فحضر هذا الاحتفال عدد كبير يبلغ الثلاثة آلاف. وبعد أن طافوا شوارع المستعمرة يتقدمهم علم الجمناستيك دخلوا إلى حديقة مدرسة الجمناز فأجرى التلاميذ بعض الألعاب الرياضية أمام الحاضرين. وتراشق من تراشق بالزهور وقصاصات الورق. وانفض الاجتماع على أنهم ما يكون بالسرور.» وقد حضر العرب هذه الاحتفالات كمتفرجين. وظهر على نفس الصفحة خبر آخر يقول: «سقط في احتفال تل أبيب كيس من حسن أفندي الدرهللي يحتوي على ما قيمته مئة ليرا فرنساويه. فعسى من يجده أن يرده إليه وله مكافأة حسنة.»^{١٤} وفي عدد آخر ظهر تقرير عن زيارة جعفر باشا. من زعماء أشرف مكة. وكان مبعوثاً خاصاً لحزب الاتحاد والترقي بمناسبة الانتخابات البرلمانية. واجتمع الضيف مع «حاخام باشي إخواننا الإسرائيليين.» واقتبست الصحيفة بتوسع من خطاب الحاخام الذي ألقاه بحضوره الضيف:

يا حضرة صاحب السماحة. إنّ الحوادث الأخيرة [في البلقان] التي عكرت صفاء سياسة الدولة العثمانية قد أفادت إفادة كبيرة بتنبئها العناصر السامية إلى علائق القرابة التي تربطها ببعضها. وإلى تضامن

[...]، فإذا كان الكاتب يعتقد خلاف ذلك عذرناه لأنه يكون قد أشبه عليه فهم ما نرمي اليه فنسب لنا البغض المجاني لإخوانه في الدين.^{١٩}

نحو الحرب العالمية الأولى

بدأت الحركة الصهيونية في صيف ١٩١٣م تحضيراتها لعقد المؤتمر الصهيوني الحادي عشر في فيينا في شهر أيلول/سبتمبر. وتابعت الصحافة الفلسطينية باهتمام هذه التحضيرات وظهرت على صفحات الجرائد ترجمات عديدة لمقالات وأخبار من الصحافة الصهيونية.

وفي آب/أغسطس ١٩١٣م، ونقلًا عن جريدة *The Truth*، لخصت جريدة فلسطين البنود الستة التي سيبحثها المؤتمر الصهيوني: التعجيل بإنشاء مصانع وصناعات صهيونية، تطوير زراعة قصب السكر، إقامة بنك زراعي، إقامة جامعة عبرية، الحصول على ترخيص حكومي للتفتيش عن معادن وإصدار صحيفة عربية بإدارة يهودية «لتشرح للعرب أهداف الصهيونية الداعية للسلام»^{٢٠}، وعلمت جريدة فلسطين على ذلك بقولها: نعبر عن تقديرنا واحترامنا لهذه الأمة التي يعمل أبناءها بكدي... ونأمل أن نرى وحدة مشابهة عند أبناء أمتنا.^{٢١}

ومثل جريدة فلسطين حضرت جريدة الكرمل الزعامة الفلسطينية لتتعلم من الصهاينة والتفكير بعقد مؤتمر مشابه وكتبت: «اعقدوا المؤتمرات، أقيموا الجمعيات، استثمروا في التربة والزراعة، حسنوا أوضاع الفلاح...» [...] أه يا أبناء شعبي... إلى الأمام، إلى الحياة إلى الحياة، [...] وإلا سيقضى علينا في معركة البقاء»^{٢٢}، وأوردت الصحافة الفلسطينية وخاصة الكرمل وفلسطين مجموعة تقارير عن أبحاث المؤتمر الصهيوني والتي ترجموها عن الصحافة العبرية والأجنبية. ولم تكتف صحيفة الكرمل بذلك بل أضافت تعليقات وتحليلات ونشرت ما بين ١٦ وحتى ٢٦ أيلول/سبتمبر ١٩١٣م مجموعة تقارير ومقالات في الموضوع. واستمر محرر الجريدة باتخاذ خط سياسي مشابه لمواقفه السابقه: التعبير عن تقديره لزعماء الصهيونية الذين عارضهم بشدة، وحث الزعامة الفلسطينية «الفاشلة» التعلم من منافسيهم، «وإلا سنفقد بلادنا لمنافسينا، الذين تفوق مقدرتهم مقدراتنا»^{٢٣}.

وفي أعقاب نزاع محلي نشب عام ١٩١٣م بين فلاحيين عرب ومستوطنين يهود في مستعمرة رحوبوت، بسبب

بدون أن يتنازلوا هم لأخذ شيء من بائع وصانع وتاجر غيرهم، فحصل من جرّاء ذلك عدم التكافؤ في كفتي ميزان العمران. أعني أن زيادة السكان زادت في غلاء المعيشة وزادت في الأثمان ولكنها لم تزد شيئاً يذكر في كسب الأهالي. وبعبارة أصرح إن المهاجرين شاركونا في غلاء المعيشة التي كانوا هم سببها ولم يقبلوا أن نشاركهم في الفوائد التي تنتج بسبب زيادة السكان. بل أوقفوها على أنفسهم فأمكنهم أن يعيشوا خير العيش لأنهم حصلون على الطبيعتين لزيادة السكان. أعني غلاء المعيشة وزيادة الكسب. وبقينا نحن أمام نتيجة واحدة فقط وهي غلاء المعيشة.^{٢٤}

لم يعجب هذا الكلام زعامة الصهيونية في يافا فردّ كاتب يهودي اسمه لودفيبول على العيسى ومن على صفحات جريدة فلسطين رداً غاضباً. وطلب من العيسى نشر الرد كاملاً فاستجاب لذلك، وقد جاء في الرد:

... نظرا لما ورد في المقالة [مقالة العيسى] لا يسعنا إلا الحكم بان الدافع لكتابة المقالة المذكورة هو كره اليهود. ورغمما عن كره الكاتب [العيسى] لليهود كان عليه أن يدرك [الأسباب الحقيقية لهذا]... فاذا أراد أحد أن يرى الضرر الذي سببه المهاجرون اليهود لهذه البلاد فليذهب إلى مستعمرات اليهود في 'ملبس' و'عيون قارة' و'ديران' حيث يجد أن مستعمرة ملبس فقط تشغل يومياً ثلاثة آلاف عامل غير إسرائيلي. أعني أنه يوجد يومياً من ٣٠-٤٠ ألف قرش إسرائيلي تذهب إلى يد غير إسرائيلية.^{٢٥}

لم يترك العيسى. محرر جريدة فلسطين، رد لودفيبول دون تعليق، بل أضاف إليه تعليقه فكتب:

نحن نعتقد بأن ما جاء في ردّ [لودفيبول] من الشطط عن الموضوع لم يكن عن جهل منه بصناعة الجدل بل لأن من عرّب له مقالنا أساء التعريب. [وبعكس ما يعتقد لودفيبول] نحن لم نتشرب بغض العنصر اليهودي، لأننا لا نعرف ولا نريد أن نعرف بوجود عنصر يهودي. بل نعرف فقط أنه يوجد ديانة إسرائيلية نجّلها ونحترمها نظير غيرها من ديانات. وأبناء هذه الديانة فهم من العناصر التركي والهندي والروسى والعربي، كما أن الديانة المسيحية فيها البلغاري والفرنساوي والصربي والأميركي

خاتمة

شخصت الصحافة الفلسطينية منذ نشأتها المخاطر والتحديات التي واجهت المجتمع الفلسطيني نتيجة لتغلغل الحركة الصهيونية لفلسطين. ونجاح الحركة الصهيونية خلال فترة البحث أوضح للمثقفين الفلسطينيين مواطن ضعف مجتمعهم. ولم تتوقف صحبات الصحافة ولم يتوان المثقفون عن دعوة القيادات السياسية وأعضاء النخبة الاجتماعية للتعلم من نجاحات الصهاينة لمنفعة وصلاح مجتمعهم. وقد شخص بعض المثقفين أهداف الصهيونية بدقة متناهية وعبروا عن مخاوفهم بوضوح من مخططاتها السياسية. وحذر هؤلاء المثقفون من أن عدم حصول تغيير جذري في المجتمع الفلسطيني. وفي مواقف القيادات السياسية والنخب الاجتماعية. تجاه الحركة الصهيونية. فلن يستطيع هذا المجتمع إبعاد الخطر الوجودي عنه.

وأظهر العديد من المثقفين الفلسطينيين كذلك معرفة تامة وعميقة بالسياسات العثمانية التي نشأت كردات فعل لضغوط القوى العظمى. وخاصة بريطانيا وفرنسا. وظهرت في الصحافة الفلسطينية مقالات عديدة حلت وانتقدت السياسة العثمانية التي عجزت عن منع تغلغل الصهيونية لفلسطين وتحقيق أهدافها السياسية رغماً عن أصحاب القرار العثماني.

لقد عملت الظروف السياسية الدولية في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين على دعم مصالح الحركة الصهيونية التي حظيت بتأييد القوى العظمى. ولم يكن بمقدور الدولة العثمانية التي كانت على حافة الانهيار وقف تغلغل الحركة الصهيونية لفلسطين وتدعيم مكانتها على الأرض عشية التحولات الكبرى التي غيرت ملامح الشرق الأوسط مع نهاية الحرب العالمية الأولى. لقد أثبت توزيع الإرث العثماني في الشرق الأوسط ما بين بريطانيا وفرنسا. وتطبيق تصريح بلفور وشمله كبنء واجب التنفيذ في صك الانتداب. صدق مخاوف المثقفين الفلسطينيين الذين حذروا وكتبوا ونادوا. ولكنهم كانوا كمن ينادي في صحراء لا صدى لها. ومع غياب الإمبراطورية الإسلامية (العثمانية). ودخول بريطانيا كوارث لها في فلسطين. فتحت صفحة جديدة بتاريخ الحركة الصهيونية والمجتمع الفلسطيني. وهي صفحة ليست كسابقاتها. فقد شملت هذ الصفحة الجديدة صراعاً دمويّاً بين الحركتين القوميتين. وتحققت نبوءة عبد الله مخلص كاملة.

خلاف على أرض المشاع التابعة لقريّة زرنوقة. نشرت صحيفة فلسطين نقلاً عن صحيفة صهيونية صدرت في استانبول اتهاماً موجهاً ضد الزعماء الفلسطينيين بتحريض الفلاحين. وقد وصفتهم الصحيفة الصهيونية بالوحوش. جاء رد صحيفة فلسطين على ذلك غاضباً بشدة:

هؤلاء الصهاينة الغرباء الذين جاؤوا إلينا بعد إذلالهم في بلدانهم وطردهم منها [...] يستغلون طيبة قلوبنا ويسعون ليصبحوا أسياداً علينا ويستعرضون قوتهم أمامنا. ينظرون إلينا باحتقار. وحينما نسعى للفت انتباه أبنائنا للأخطار المحيطة بهم. يتهموننا بالكراهية والوحشية. يكتبوا في صحافتهم وينشروا في أوروبا بأننا نحرض الناس ضدهم ونريد القضاء عليهم وذبحهم. ألا يشبه هذا قصة الذئب والحمل؟^{٧٤}

وبعد سلسلة مقالات نشرتها فلسطين في موضوع الصهيونية. أعلنت الجريدة للقراء بأن الصهاينة أقاموا جمعية تسعى لمقاطعة أهل البلاد وتقاطع جريدة فلسطين نفسها.^{٧٥} واستمرت وزادت وتيرة الكتابة النقدية ضد الصهيونية حتى تمّ توقيف كل الصحف الخاصة مع اشتعال الحرب العالمية الأولى.

لم تتغير مواقف الصحافة الفلسطينية الخاصة بمعظمها ومنذ نشأتها عام ١٩٠٩م إلا في مسألة واحدة وهي التمييز الواضح ما بين اليهودي والصهيوني. وفي هذا الشأن كتبت صحيفة فلسطين: «نحن نقف بالمرصاد للصهاينة من بين اليهود. الصهاينة في بلادنا فلسطين يسعون للقضاء علينا واستعباد روحنا.»^{٧٦} وانعكاساً لهذا الموقف المبدئي. أوردت صحيفة فلسطين في نفس العدد خبراً عن فرية الدم التي انتشرت في ذلك الوقت في مدينة كيبف ضد شخص يهودي يدعى مناخم منديل بيليس ومحاكمته بتهمة قتل طفل مسيحي ليستعمل دمه في الطقوس الدينية. وعبر يوسف العيسى. محرر الصحيفة. وهو مسيحي أرثوذكسي. عن غضبه بشأن هذه الفرية وإجراء المحاكمة فكتب: «عار القرن العشرين... نحن نحترم ونقدّر اليهود وهم أبناء ديانة توحيدية ونذم وندين من يتهمهم بهذه التهمة الباطلة. التي لا يمكن أن يصدقها عاقل... وتلطّيح الديانة اليهودية باتهام كهذا والادعاء كذباً مثل هذا الادعاء ما هو إلا جنون. نأمل من مثقفي القرن العشرين إزاحة هذا العار عن أنفسهم.»^{٧٧}

الهوامش

٤٤. بن يهودا ١٩٠٩ أ.
٤٥. بن يهودا ١٩٠٩ ب.
٤٦. السكاكيني ٢٠٠٣-٢٠١٠.
٤٧. نفس المصدر مجلد ٢، ص ٥٥.
٤٨. نفس المصدر نفس الصفحة.
٤٩. نفس المصدر ٥٦.
٥٠. نفس المصدر ٨٦.
٥١. نَصَار ١٩١١.
٥٢. نجيب نَصَار ١٩١٢ أ.
٥٣. نَصَار ١٩١٢ ب.
٥٤. نَصَار ١٩١٢ ج.
٥٥. نَصَار ١٩١٢ د.
٥٦. شحادة ١٩١٠.
٥٧. المقتبس ١٩١٠ أ.
٥٨. المقتبس ١٩١٠ ب، الجزء الأول.
٥٩. المقتبس ١٩١٠ ب، الجزء الثاني.
٦٠. المقتبس ١٩١٠ ب، الجزء الخامس.
٦١. المقتبس ١٩١١.
٦٢. فلسطيني ١٩١١.
٦٣. فلسطين ١٩١١.
٦٤. فلسطين ١٩١٢ أ.
٦٥. فلسطين. ١٩١٢ ج.
٦٦. فلسطين ١٩١٢ ب.
٦٧. العيسى ١٩١٢.
٦٨. لودفيول ١٩١٢.
٦٩. فلسطين ١٩١٢ د.
٧٠. فلسطين ١٩١٣ أ.
٧١. نفس المصدر.
٧٢. نَصَار ١٩١٣ أ.
٧٣. نَصَار ١٩١٣ ب.
٧٤. فلسطين ١٩١٣ ب.
٧٥. فلسطين ١٩١٣ ج.
٧٦. فلسطين ١٩١٢ د.
٧٧. فلسطين ١٩١٣ هـ.
١. Rupin 2011.
٢. Yazbak 1998, 28-68.
٣. Kark 1991-92, 71-82.
٤. Owen 1981, 292.
٥. Issawi 1982, 29.
٦. Hurewitz 1972, 110-111.
٧. Shafir 1989, 22-25.
٨. Schölich 1993, 47-75.
٩. Mordechai 1970, 117-118.
١٠. Yazbak 1999, 40-54.
١١. Ibid, p. 43.
١٢. بابيه، إيلان. ١٩٩٧. «الصهيونية كالكولونالية --- نظرة مقارنة مع آسيا وأفريقيا». يحيعام وايس (محرر). نظرة ناقدة: مئة سنة من الكتابة الصهيونية. القدس: مركز زلمان شزار. ص. ٣٤٥-٣٥٦ (عبري).
١٣. Masalha 1999, 5-118.
١٤. Conder 1878, 327; Schölich 1993, 73.
١٥. Oliphant 1880.
١٦. Schölich 1993, 72-73.
١٧. Yazbak 1999, 44.
١٨. Ibid.
١٩. Ibid.
٢٠. Neville 1976, 1.
٢١. Ibid, p. 2.
- حفتسليت ١ أيلول/سبتمبر ١٨٨٢ (بالعبري).
٢٢. Shafir 1989, 24.
٢٣. Kark 1990.
٢٤. P.R.O. London, FO 195\1727.
٢٥. المقتطف ١٨٩٥م، ٧٩٥.
٢٦. نفس المصدر ١٨٩٨، ٣١٠-٣١١.
٢٧. المنار ١٨٩٨، ١.
٢٨. المنار ١٨٩٨م، ١.
٢٩. لمعرفة المزيد عن الخالدي راجع: Schölich 1993, 240-252.
٣٠. Schölich 1993, 289; Mandel 1976, 48.
٣١. للاستزادة وتحليل علاقات أبناء عائلة الحسيني مع اليهود في القدس في أواخر القرن التاسع عشر، انظر: Pappe, 1993:139-154.
٣٢. Pappe 1993, 140, 143.
٣٣. Hyamson 1939-1941, vol. 2, 461.
٣٤. المشرق ١٨٩٩، ١٠٨٨-١٠٩٤.
٣٥. نفس المصدر ١٠٨٨.
٣٦. نفس المصدر ١٠٩٤.
٣٧. المنار ١٩٠٢، ٨٠١-٨٠٩.
٣٨. المنار ١٩٠٢، ٨٠١-٨٠٩.
٣٩. المنار ١٩٠٣، ١٩٦.
٤٠. Campos 2011; Jacobson 2011.
٤١. حول انضمام اعضاء يهود لجمعية الاتحاد والترقي في القدس أنظر يوميات المري المقدسي المعروف خليل السكاكيني ٢٠٠٣-٢٠٠٩، مجلد ١، ص ٣٠٨-٣٠٢، مجلد ٢، ص ٨٦، ١٣٣، ١٤٨ (١).
٤٢. Mandel 1976, 70.
٤٣. نفس المصدر (٧-٩٢).

رضا محمد رشيد. ١٩٠٢. «حياة أمة بعد موتها» المنار ٤ (٢١). ص. ٨٠٩-٨٠١.

شهادة بولص. ١٩١٠. «الإستعمار الصهيوني» المقتبس. ١٩١٠. ١٩١٠-١٣٦٨.

Albert, Hyamson, 1939-1941. *The British Consulate in Jerusalem in Relation to the Jews of Palestine, 1838-1914*, vol. 2, London: E. Goldston.

Campos, U. Michelle, 2011. *Ottoman Brothers: Muslims, Christians and Jews in Early Twentieth Century Palestine*, Stanford: Stanford University Press.

Claude Reignier, Conder, 1878. *Tent work in Palestine: a record of discovery and adventure*, vol. 2, London: R. Bently.

Hurewitz, J. C 1972. *Diplomacy in the Near East*, Vol. 1, New York: University Press.

Issawi, Charles, 1982. *An Economic History of the Middle East and North Africa*, New York: Columbia University Press.

Jacobson, Abigail, 2011. *From Empire to Empire: Jerusalem Between Ottoman and British Rule*, New York: Syracuse University Press.

Kark, Ruth, 1990. "Land Purchase and Registration by German -American Templars in Haifa," *International Journal of Turkish Studies*, 5 (1-2): 71-82.

Mandel Neville J, 1976. *The Arabs and Zionism before World War I*, Berkeley: University of California Press.

Masalha, Nur, 1999. *Expulsion of the Palestinians: The Concept of "Transfer" in Zionist Political Thought, 1882-1948*, Washington: Institute for Palestine Studies.

Mordechai, Eliav 1970. *German interests and the Jewish community in nineteenth-century Palestine*, Jerusalem: Yitshak Ben-Tsevi.

Oliphant, Laurence, 1880. *The land of Geleed with excursions in the Lebanon*, Edinburgh: W. Blackwood.

Owen, Roger, 1981. *The Middle East in the world economy, 1800-1914*, London: Methuen.

Rubin, Avi, 2011. *Ottoman Nizamiye Courts: Law and Modernity*, New York: Palgrave Macmillan.

Schölch, Alexander, 1993. *Palestine in Transformation, 1856-1882: Studies in Social, Economic, and Political Development*, translated by William C. Young, Michael C. Gerrity, Washington: Institute for Palestine Studies.

Shafir, Gershon 1989. *Land, labor, and the origins of the Israeli-Palestinian conflict, 1882-1914*, Cambridge: Cambridge University Press.

Yazbak, Mahmoud, 1998. *Haifa in the Late Ottoman Period, 1864-1914: A Muslim Town in Transition*, Lieden: Brill.

Yazbak, Mahmoud, 1999. "Templars as Poto-Zionists? The 'German Colony' in Late Ottoman Haifa," *Journal of Palestine Studies* 28 (4): 40-54.

_____ ١٩٠٩ ب. «حديثان: حديثي مع روجي الخالدي» هتسبي. ١٩٠٩١١١٢ (عبري).

حبتسلت. ١٨٨٢. «أفكار كازالاظ ومشاريعه» حبتسلت. ١٨٨٢(١٩١). ص. ٣١٨-٣١٤ (عبري).

لودفيبول. ١٩١٢. «رد على مقال المهاجرون وغلاء المعيشة» فلسطين ١٤٢. ١٩١٢١٦١٥. ص. ١.

لمنس. هنري. ١٨٩٩. «اليهود في فلسطين ومستعمراتهم» المنشرق ٢ (٢٣). ص. ١٠٨٨-١٠٩٤.

مخلص. عبدالله. ١٩١٠. «كتاب مفتوح إلى مجلس النواب» المقتبس ٣١٨. ١٩١٠٣١١٥. ص. ٢-١.

نصار. نجيب. ١٩١١. الصهيونية: تاريخها، أغراضها وأهميتها ملخصاً عن الاتسكولويديا اليهودية. حيفا: الكرمل.

_____ ١٩١٢ أ. «لنتعلم من الصهيونيين» الكرمل ٢٦٨. ١٩١٢١٩١٢٤. ص. ١.

_____ ١٩١٢ ب. «أيها الناشئة، الوطن يستغيث» الكرمل ٢٦٩. ١٩١٢. ٢٤٩. ص. ١.

_____ ١٩١٢ ج. «المشكلة الصهيونية ستصير مثل المشكلة البلقانية» الكرمل. ١٩١٢١٠١١. ص. ١.

_____ ١٩١٢ د. «إن كنت ذا حياة فتكلم» الكرمل ٢٩٠. ١٩١٢١٢١٢١٠. ص. ١.

_____ ١٩١٣ أ. «صراع البقاء» الكرمل. ١٩١٣٨١١٥. ص. ١.

_____ ١٩١٣ ب. «في أعقاب المؤتمر الصهيوني» الكرمل. ١٩١٣٩١١٣. ص. ١.

فلسطين. ١٩١١. «احتفال اهل اللد مع اليهود» فلسطين ٨٦. ١٩١١١١١١١٥. ص. ٣.

_____ ١٩١٢ أ. «زواج ميمون» فلسطين. ١٩١٢١٣٢٧.

_____ ١٩١٢ ب. «الشريف جعفر باشا والإسرائيليون» فلسطين ١٢٤. ١٩١٢١٣٣٠. ص. ٣.

_____ ١٩١٢ ج. «عيد الزهور عند اليهود» فلسطين ١٣٧. ١٩١٢١٥١١٨. ص. ٣.

_____ ١٩١٢ د. «نسكت فينطقوننا» فلسطين ١٤٤. ١٩١٢١١١١٥. ص. ١.

_____ ١٩١٣ أ. «نواب فلسطين في المؤتمر الصهيوني» فلسطين ٢٦١. ١٩١٣. ٩٨. ص. ٢.

_____ ١٩١٣ ب. «كيف يوظفون الأخبار» فلسطين ٢٦٦. ١٩١٣٨١٢٧. ص. ٢.

_____ ١٩١٣ ج. «الصهيونيون يقاطعون الوطنيين» فلسطين ٢٧٣. ١٩١٣٩١٢٠. ص. ٢.

_____ ١٩١٣ د. «صدي مسألة بليس» فلسطين ٢٨٣. ١٩١٣١٠١٢٥. ص. ١.

_____ ١٩١٣ هـ. «معرفة القرن العشرين» فلسطين. ١٩١٣١٠١٢٥. ص. ١.

بابيه. إيلان. ١٩٩٧. «الصهيونية كالكولونالية --- نظرة مقارنة مع آسيا وأفريقيا» يحيعام وايس (محرر). نظرة ناقدة: مئة سنة من الكتابة الصهيونية. القدس: مركز زلمان شزار. ص. ٣٤٥-٣٥٦ (عبري).

_____ ٢٠٠٢. نيلاء البلاد: عائلة الحسيني. القدس: مؤسسة بيالك (عبري).

فرحي. دافيد (محرر). ١٩٧٦. العثمانية الفتاة وتركيا الفتاة: وثائق مختارة. حيفا: جامعة حيفا (عبري).

بيرى. يارون. ١٩٩٥. تلة الأمل: الاستيطان الألماني-الأمريكي في يافا. ١٨٥٠-١٨٥٨. حيفا: معهد جوتليب شوماخر. جامعة حيفا (عبري).